سلسلة أحوال المؤمنين في الأشهر المعلومات

فضيلة الشيخ / محمد الدبيسي

حفظه الله وعفا عنه

الطبعة الثالثة

**الطبعة الثالثة**

شوال ١٤٣٠هـ الموافق سبتمبر ٢٠٠٩م

جميع الحقوق محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وبعد ؛

استكمالا لما قد بدأناه من الكلام عن أحوال المؤمنين بعد رمضان، جاءت هذه الطبعة المزيدة من هذا الكتاب لتبين قضية حب الدنيا والقصص القرآني المتعلق بحب الدنيا وكيف حقَّر الله هذه الدنيا وحط من شأنها، وحذر أهل الإيمان من التطلع إليها والنظر إلى زينتها، وبين كذلك عاقبة هؤلاء الذين الذين توسعوا فيها، وتكبروا بها حتى كانت سبب هلاكهم.

## مقدمة

إن الحمد لله، نَحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

[ آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

[ النساء:١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [ الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهديِّ، هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وشر الأمور مُحدثاتُها، وكل مُحدثة بدعة، وكل بدعة ضلاله، وكل ضلاله في النار.

اللهم صلِّ على سيدنا محمد النبي، وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته وأهل بيته، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيد.

فهذه الصفحات انتخبت من خطب ألقاها **فضيلة الشيخ/ محمد الدبيسي** تشمل خطبة عيد الفطر وبعض خطب الجمعة في شوال لعامين متتاليين وكان ترتيبها على ما اعتدنا عليه من الاختصار في هذه الرسائل، رجاء التوسع في بسط ما تعرضت له من موضوعات ليكون ذلك دليل المؤمنين على السير في طريق الله تعالى.

وحال الخروج من رمضان قضية مهمة وخطيرة لارتباطها بأمرين :

**الأمر الأول:** بعد انتهاء الموسم العظيم الذي فتحه الله تعالى بالفرص العظيمة لأهل الإيمان ليتحققوا فيه بالمغفرة والعتق من النار، وصار الناس فريقين، الأول فاز بالمغفرة والرحمة والعتق من النار وأخذ في السير في طريق الله تعالى وصار يسأل: كيف يحافظ المرء على هذه الأحوال التي قد حصل في رمضان وكيف يشكر ربه على ما كان من رحمة ومغفرة ؟ والثاني على خلاف الأول لم يحصل شيئا وخرج خائبا وصار كذلك يسأل كيف يعاود طريقه إلى الله تعالى مرة أخرى ؟

**الأمر الثاني:** بعد رمضان ما تزال نعم الله تعالى تتوالى على المؤمنين بفتحه لهم أيام البر وموسم الحج إذ أنه من أعظم مواسم المغفرة والناس فيه على ضربين، **الأول** : الذي حصل المغفرة في رمضان فأتت هذه المواسم لتكون زادًا يتزود فيه من الطاعات وليتمكن من شكر الله تعالى على مافتح عليه. والثاني: فهو الذي لم يحصل تلك المغفرة في رمضان فأتت كذلك تلك المواسم ليلتحق بركب السائرين في طريق الله تعالى وليتمكن من تعويض ما فات من الطاعات. ففتح الله تعالى هذه المواسم لكلا الفريقين ليغفر لهم ويرحمهم وتكون سببًا في عتقهم من النار؛ وكذلك فتحت هذه المواسم لتتحقق بها

أشواق أهل الأيمان للوصول لبيت الله تعالى تمهيداً لرؤية الرب في الميعاد المضروب يوم يقوم الناس لرب العالمين .

**فجائت** هذه الخطب بتوضيح علامات السائرين في طريق الله تعالى، وتبيين السبيل الذي ينبغي على أهل الأيمان أن يسلكوه في الأشهر المعلومات ولتشير لتلك المعالم المضيئة التي تعين السائرين على الاستقامة في طريق الله وعدم النكوص أو الانحراف.

واعلم أن ذلك كله لا يمكن تحقيقه إلا بالاستعانة بالله تعالى والارتكان إلى قوته والتوكل عليه والتضرع إليه سبحانه وتعالى ألا يكلنا إلى أنفسنا.

وفي النهاية فما كان من صواب فمن الله تعالى وحده، وما كان من خطأ فمنا ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريئان، ورحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا.

نسأل الله تعالى أن ينفع به قائله وكاتبه وناشره والناظر فيه إنه سميع الدعاء.

مسجد

الهدي المحمدي

**الفصل الأول:**

# علامات السائرين في طريق الله تعالى

**تراهم قد خرجوا من رمضان وقد ظهرت عليهم آثار الرحمة، وآثار المغفرة، وآثار العتق من النار ؟**

أم أنهم قالوا : لم يحدث ذلك، وإن شاء الله في رمضان القادم سنبدأ من أوله، وسنحاول، وسنجاهد وسنواصل، وسنفعل وسنفعل ؟!

تراهم قد أخذوا هذه الفرصة من الله تعالى بالفرحة والإقبال والجد والعزم وبذلوا فيها وقتهم وجهدهم ومالهم وصحتهم وفراغهم ليحققوا أسباب المغفرة، فإنهم لو بذلوا الدنيا وما فيها وجهدهم ومالهم ووقتهم وعمرهم ليحصلوا المغفرة كان ذلك قليلاً؛ **تراهم قد حصلوا ذلك ؟!**

تراهم قد خرجوا فظهرت عليهم آثار المغفرة، وآثار العتق من النار، وآثار التوبة، وصاروا خلقًا جديدًا أحب إلى الله، وأقرب إليه، وأسرع إلى مرضاته، قد علاهم الخشوع والخضوع والإقبال على الحق، والاستعداد للقاء الله جل وعلا ؟ **هذا هو مفترق الطرق**.

ومحل السؤال اليوم .. هل سرنا في هذا الطريق الذي حدده الله تعالى وأمر به، أو أن هذه الطرق قد تشتت بنا، ورجع من رجع، وتكاسل من تكاسل، وسوَّف من سوَّف، ثم انتظر أن يأتي رمضان الجديد ؟

هذا هو السؤال الذي ينبغي أن يسأله المرء نفسه، فيعلم أنه إما قد سار في الطريق الذي وقفنا فيه، أم أنه قد تراجع عنه ؛ لأنه ليس هناك أحد يقف في طريق الله تعالى؛ إما أن يتقدم إلى الله، وإما أن يتأخر؛ إما سائرون إليه مسارعون له متنافسون في

الوصول إلى مرضاته، أو أنهم مقبلون على الدنيا آخذون بأسبابها راكنون إلى الشهوات والملذات، منشغلون بالولد والمال وتحصيل الفاني الزائل الذي سرعان ما يموتون وينتقلون عنه.

لو كان ذلك كما ندعي ونزعم فلابد أن نقول: **إن الطريق الذي قد اخترناه له علامات** ينبغي أن يراها المرء فى نفسه؛ هل سار في طريق الله تعالى، وسلك سبيله، وظهرت عليه آثاره، أو أنه لم يبدأ في هذا الطريق بعد، وينتظر هذا القول من النبي ﷺ: «رغم أنفه، أبعده الله، أدخله الله النار قل : آمين، قلت : آمين»[1].

**ويسأل السائل ما هي علامات هذا الطريق الذي تدعي؟**

وهذا الطريق أوله هذه العلامات التي ظهرت في رمضان من معاني العبادة والهمة والمجاهدة وما ينبغى أن يكون بينه وبين الله تعالى، وبينه وبين أهله، وبينه وبين أمته، وبينه وبين الناس، تحمل بذلك كله وسار به وأخذ مسئوليته منه بحيث إنه لو قيل له : أنت اليوم منقول إلى الله تعالى ومرتحل إليه ...

**لم يكن عنده ما يستطيع أن يزيد عليه...**

**لم يكن عنده بذل جديد...**

**لم يكن عنده وقت جديد...**

**لم يكن عنده مال جديد...**

**لم يكن عنده جهد جديد يقدمه ....**

---

(1) سبق تخريجه .

فقد بذل جهده ووسعه ليحقق أسباب نجاته، كما بذل جهده ووسعه ليحقق أسباب الدنيا والسير فيها والمشقة لها والتعب في تحصيلها، ثم يموت وينتقل عنها.

## أولًا : محبة الله تعالى

أول علامات هذا الطريق ...**محبة الله تعالى**، فمن خرج مغفورًا له فقد خرج محبًّا لربه، مقبلاً عليه، متعلقًا به، متوكلاً عليه، واثقًا فيما عنده، قد امتلأ قلبه من محبته ومن نوره ومن ذكره، ومن الطمأنينة له، ومن الأنس به، والشوق إلى لقائه والاستعداد لهذا القاء مع المسارعة إلى طاعته وبذل المال والنفس والجهد لتحقيق رضى الله تعالى.

**هل قدمت ذلك على الولد وعلى الزوجة وعلى الابن وعلى الأب وعلى المساكن وعلى الدنيا** التي قال سبحانه وتعالى فيها: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (آل عمران ١٤-١٥). هؤلاء للذين خرجوا من الصيام تقاة لله تعالى لهم: ﴿ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (آل عمران ١٥).

أم أنك ما زلت تقدم نفسك وولدك ومالك وثروتك وراحتك ونومك وصحتك وعيالك وزوجتك على الله تعالى ؟! ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ

تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (التوبة: ٢٤) .

**فهذا هو المعنى الأول: هل خرج به المرء أم لم يخرج ؟** وهذا هو الحال الذي ينبغي أن يظهر على المؤمنين الذين سلكوا هذا الطريق، وقد فتح الله تعالى لهم هذه الرمضانات كلها يمتحنهم فيها، ويبلوهم بها سبحانه وتعالى، ليتميز المحبون له من أولئك الدخلاء على محبته من أولئك المقصرين المفرطين فى محبته تعالى، ليتميز الطائعون من المفرطين المتكاسلين ليتميز المقبلون من المدبرين الناكصين وهذه هي بداية الطريق الذي وقفنا في مفترقه إلى الله تعالى فهل ساروا إليه أم نكصوا عنه وتقهقروا فيه ورجعوا إلى الدنيا متكالبين عليها غافلين بها عن الآخرة زاهدين بها في لقاء الله تعالى؟

## ثانيًا : ذكر الله تعالى

وكان الأمر الثاني الذي يتميز به أولئك السائرون إلى الله تعالى هو ذكر الله تعالى، قال تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ (البقرة ١٥٢).

تراه قد غلب عليه الذكر كما قال: ﴿ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب ٤١)، فكان الذكر الكثير هو الغالب على حاله ؟ أم أن اللهو والغفلة والكلام الفارغ هو الذي قد زين طريقه ومعاملته وسيره ونومه وحركته وسكونه، لذلك قال تعالى: «**أنا جليس من ذكرني**»[1].

(١) رواه الديلمي بلا سند عن عائشة مرفوعًا، وعند البيهقي في الشعب عن أُبَي بن كعب قال: قال موسى عليه الصلاة والسلام يا رب أقريب أنت فأناجيك أو بعيد فأناديك؟ فقال له يا موسى أنا جليس من ذكرني، ونحوه

**فهلا استأنس بهذا الجليس؟ هل استأنس بربه ومحبوبه؟** أم أن أنسه كان بالناس واختلاطه بهم وإقباله عليهم وأنسه بكلامهم، واستئناسه ووحشته من ربه والحجاب بينه وبين الله تعالى؟

هل غلب على حال السالكين إلى الله تعالى أن يكون ربه جليسه وحاضره ومحدثه، يناجيه ويبثه شجونه ودعواه، ويدعوه ويتملقه، ويرفع إليه ويتضرع إليه ؟ هل نظروا إلى هذا الحال فبين لهم مقامهم وسيرهم إلى الله تعالى؟

ثم بين لهم **أعلى الذكر وأفضله وهو قراءة القرآن الكريم**؛ تراهم قد أقبلوا على هذا الكلام كما ذكرهم المولى سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ (فاطر ٢٩) وكما قال تعالى: ﴿ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الأنفال: ٢) هل ظهر عليهم ذلك ؟

هل ظهرت عليهم بركته ورحمته ونوره وهداه وشفاؤه ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ (فصلت ٤٤) فكان دواؤهم الذي يأخذهم إلى الله تعالى، ويطهر

---

عند أبي الشيخ في الثواب عن كعب والبيهقي أيضًا في موضع آخر أن أبا أسامة قال لمحمد بن النضر أما تستوحش من طول الجلوس في البيت؟ فقال ما لي أستوحش وهو يقول أنا جليس من ذكرني.

وأخرجه أبو الشيخ عن محمد بن نضر الحارثي، أنه قال لأبي الأحوص أليس تروي أنه قال أنا جليس من ذكرني فما أرجو بمجالسة الناس؟ وعند البيهقي معناه في المرفوع عن أبي هريرة أنه قال سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: إن الله عز وجل قال أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه. ورواه الأوزاعي عن أبي هريرة موقوفا ومرفوعا، والمرفوع أصح. ورواه الحاكم وصححه عن أنس بلفظ قال الله تعالى: عبدي أنا عند ظنك بي، وأنا معك إذا ذكرتني.

ظاهرهم وباطنهم، ويطهر قلوبهم وأبدانهم وألسنتهم وجوارحهم في سيرهم إلى الله تعالى، كان ذلك الكتاب على هذا المعنى كما قال تعالى: ﴿ مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ (الزمر ٢٣) ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (الإسراء ٨٢) ويبكون عند تلاوته وسماع آياته ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (مريم ٥٨).

تراك قد أقبلت على هذا القرآن وأدمنت تلاوته وتدبرت معانيه، وصرت ملتزمًا بأوامره ونواهيه، تأخذ منه ما يكون سببًا لنجاتك عند الله تعالى، وصلاح قلبك وصلاح بدنك وسيرك إلى الله تعالى، أم ما يزال الحجاب بينك وبينه والبعد والتقصير هو السائد عليك الملازم لك؟

هل تحقق هذا المعنى في سير السائرين إلى الله أم أنهم ما زال بينهم وبين كلام الله تعالى هجراً ؟ ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ (الفرقان ٣٠).

## ثالثًا: المواظبة على قيام الليل

وكذلك من العلامات التى تبين حال محبي ربهم المقبلين عليه الذين قد سلكوا الطريق إليه، ويوشكوا أن يصلوا إلى محبوبهم تبارك وتعالى، ولم يكن حالهم حال الادعاء والتقصير، علامة قيام الليل.

فقد كان في رمضان يقوم في الليل لله تعالى فإذا هو بعد رمضان تظهر عليه آثار ذلك القيام ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (السجدة ١٦) ، ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ

﴿ يَسْجُدُونَ ﴾ (آل عمران ١١٣) ظهر عليهم ذلك في وقوفهم لله تعالى وفي مناجاتهم له، وفي التلذذ بهذه المناجاة، فإن مناجاة الله تعالى ليست من الدنيا بل هي من الجنة اصطفى لها ناسً أوصلهم إليها .

لذلك يقول جل وعلا: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (الذاريات: ١٧-١٨) هل وصلوا إلى هذا الحال الذي هو بداية الطريق إلى الله تعالى، أم أن الغالب عليهم النوم والكسل وراحة الجسد الفاني الذي إن هم أتعبوه في الدنيا وجدوا راحتهم في الآخرة وإن أراحوه في الدنيا تعب يوم يقوم الناس لرب العالمين .

## رابعًا : المسارعة إلى الخيرات

ثم ذكرهم سبحانه وتعالى أن يكونوا في بقية العبادة على حال المسارعة فقال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ (الأنبياء: ٩٠) فهلا كان ذلك منك؟

لما نزل قوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (آل عمران: ١٣٣) علم المؤمنون المتقون أنهم هم المقصودون بهذه الآيات، وأنهم هم المطالبون بالمسارعة، فسارعوا فيها، وتنافسوا بينهم أن يصل كل منهم الأول إلى الله تعالى ؛ فلم يبق لهم جهد ولا مال ولا وقت إلا بذلوه لله تعالى ونحن نزهد في طاعة الله تعالى لنوفر الجهد والمال والوقت للزائل للشهوات، للبعد، للغفلة، للفرص الكاذبة، إلى غير ذلك من الأحوال الفاسدة التي تعلو هيئة المؤمنين وقلوبهم هذه الأيام !

هلا سارعوا وعلموا أن هذه المسارعة لابد أن يقوموا بها، لأن أيام الدنيا معدودة، وابن آدم عدة أيام، إذا مضى يوم مضى بعضه حتى ينتهي إلى الله تعالى؟

وقد وعظهم الله سبحانه وتعالى بأن ليس لهم وقت في الدنيا ، وهو قوله الذي نذكره كثيرا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ ( الْحَشْرِ ١٨ : ١٩ ) .

والمعنى في قوله ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ ﴾ ( الْحَشْرِ : ١٨ ) هو أن أقرب الأيام أن يكون المرء عند الله هو الغد، ولو كان هناك يوم يمكن أن يكون المرء فيه عند الله قبل الغد لذكره الله تعالى، فكل نفس مطلوب منها أن تنظر فيما تلاقي به الله تعالى، هل يبيض وجهها أو يسوده ؟ من الذي نظر في أعماله وصحيفته فختمها بخاتمة تكون سبب أن يبيض الله وجهه يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ؟

فعندما يقول : ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ ﴾ ( الْحَشْرِ : ١٨ ) تكون كل نفس مطالبة بذلك ولكن الله تعالى نعى على المؤمنين لأنهم لن يقوموا بذلك وسيقصرون فيه فقال : (نفس) يعنى حتى نفس واحدة تقوم من هذه النفوس التي تدعي المحبة والطاعة، والإقبال والتوحيد أن تقوم نفس واحدة لله تعالى لتنظر ما قدمت لغد، وذلك حتى يحضهم على أن يقوموا لله وأن تكون كل نفس منهم هي النفس التي تقوم لله تعالى.

هلا قامت كل نفس إذن لله تعالى ونظرت فيما قدمت، فختمت يومها بالعمل الصالح وحاسبت نفسها على ما قدمت وأخرت، حتى إذا لاقت الله تعالى لاقته وليس عليها شيء، فلاقت ربها سبحانه وتعالى مسرورة به وهو راض عنها سبحانه وتعالى.

هلا أسرع في الإنفاق له، هلا أسرع في بذل وقته، هلا قام بما ينبغي أن يكون عليه من طلب العلم النافع والعمل الصالح والسير إلى الله تعالى، هل قدمت هذه النفس كما ذكرنا ما يكون سبب صلاحها عند الله تعالى ؟

## خامسًا : الانشغال بأمر الدين والدعوة

والسؤال هنا ماذا قدم هؤلاء المتقون لأمتهم التي وصلت إلى الحضيض؟ لمن تركوا الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، لمن تركوا التوسل إلى الله واللجوء إليه بالعمل الصالح ليرفع البلاء عن هذه الأمة ويدفع عنها ما نزل بها من الفقر وما ألم بها من المصائب التي هم السبب فيها ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ (الشورى ٣٠) ما نزل بلاء إلا بذنب ولا يرفع إلا بتوبة، ماذا قدم هؤلاء فى الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة وهل قدموا لله تعالى كلمة يرجون ثوابها عند ربهم، يرفعون بها البلاء عن أقوامهم ؟

**ماذا قدم هؤلاء ؟؟؟ لمن تركوا بيوت الله تعالى في صلواتهم وعباداتهم وذكرهم وعلمهم ؟؟؟**

**والمعنى التالي** هو الحال الذي يكون عليه فيما بينه وبين أهله وولده، فيحملهم على الدين ويعلمهم طريق الله تعالى **ويأخذهم من مفترق الطرق إلى طريق الله تعالى** الذي يسير فيه، وكذلك أن يظهر **بره لوالديه وإحسانه إليهما**، إلى غير ذلك مما ذكر الله تعالى.

وينتقل بعد ذلك إلى ما يكون بينه وبين المؤمنين من **سلامة القلب لهم والتكافل بينهم** والتعاون بينه وبين إخوانه كما قال: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى

﴿ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ (المائدة ٢)، «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[1]، ليس بينه وبينهم بغضاء ولا شقاق ولا تدابر ولا تقاطع ولا حقد ولا غل ولا محبة نفس وإيثار الدنيا والأثرة عليهم بل بينه وبينهم الكرم والجود والإحسان والعمل الصالح ثم دعوتهم إلى الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ (النحل ١٢٥) **بالأمر بالمعروف بالمعروف والنهي عن المنكر بالرفق واللين.**

**ترى هذه الآثار قد ظهرت** في طريق المتعبدين واتضحت عليهم وبانت أنوارها عليهم في حركاتهم وسكناتهم وكلامهم وظاهرهم وباطنهم وعبادتهم وقربهم وذكرهم وقرآنهم ومساجدهم ومعاملاتهم وإحساناتهم؟! وكذلك فيما بينهم من ترك المظالم والتناسي لما بينهم من المآسي والمصائب، وتجاوز كل عن أخيه يريد بذلك أن يتجاوز الله تعالى عنه، وتسامح كلٌ في حقه يريد أن يسامحه الله تعالى، فصاروا بذلك خلقا جديدا يستحق رحمة الله ومغفرته، ويستأهل أن ينزل عليهم سبحانه وتعالى بركته ويرفع عنهم بلاءه؟

## سادسًا: الزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة

فهذه النفس التي سلكت طريق الله تعالى من بين هذه الطرق المفترقة التي ذكرنا، هي التي استعدت للقاء الله تعالى، ولا تكون مستعدة للقاء الله تعالى إلا **بالزهد**

(١) رواه البخاري (٦٠١١) كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ومسلم (٢٥٨٦) كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.

**في الدنيا والإقبال على الآخرة**، والركون إلى دار الخلود، وترك الركون إلى دار الفناء، وأن يكون من أهل الآخرة فيسارع مستعدا إلى الله تبارك وتعالى، ولا يكون من أهل الدنيا التي يتكلمون عليها ويتنافسون فيها ويعلون بها ويتعززون ويتكبرون بها !

إن كان الله تبارك وتعالى تهمه هذه الدنيا لجعلها لهؤلاء الكفرة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف ٣٣-٣٥) فيبين سبحانه أنه لولا أن يتبع الناس هؤلاء، لجعل لمن يكفر به، لبيوتهم من فضة وسلالمهم كذلك وسررهم من ذهب ولفعل لهم ما لا يحسبه المرء أو يتخيله، ولكنه قال: ﴿ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، **الآخرة عند ربك لمن سلكوا طريق التقوى الذي يوصلهم لرحمة الله**، قال: ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ ﴾ أيها المسلمون خير من هذا الجمع الزائل الذي تسعى إليه، فتضيع به آخرتك، وتنسى به ربك وتفاجأ بملك الموت على رأسك يقول اخرجي أيتها النفس إلى الله تعالى حينئذ تقول : أخرني يومًا أتوب فيه إلى الله وأعمل صالحًا، أخرني ساعة، فيقال: لا يوم ولا ساعة فنيت الأيام وفنيت الساعات، وحينئذ يقال له كما ذكر الله تبارك وتعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المنافقون ١٠-١١).

فإذا لم تظهر هذه العلامات، فالسؤال ما هو السبب الذي جعل المؤمنين يقصرون ويفرطون ويخرجون من رمضان وهم لم يسيروا بعد في طريق الله ؟

السبب في ذلك أنهم لم يستطيعوا أن يوفوا بعهدهم مع الله تعالى في رمضان، وإذا قلنا لماذا لم لا يستطيعوا الوفاء، **فإن السبب في ذلك ضعف الإيمان**.

**فلو استشعر أهل الإيمان موقفهم عند الموت** لكان ذلك سببا لأن يسارعوا بالاستعداد للقائه سبحانه وتعالى وكذلك لو استشعروا موقفهم في الآخرة، وأنهم قد يكونوا في محل عقاب الله تعالى، وأنهم موقوفون ومسئولون لشاب شعرهم، كما قال تعالى في هذه الآيات: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ ( المزمل : ١٧ ) فلو كان المؤمنون يستشعرون ذلك لكان حالهم على غير هذا الحال، ولكان لهم خوف وخشية تدفعهم إلى الله تعالى وإلى التوبة والعمل الصالح.

لو استشعر هؤلاء المتسارعون إلى الدنيا والمتنافسون فيها **أن ربهم مطلع عليهم وناظر إليهم لكان لهم استحياء من الله تعالى**، غير هذا الذي هم فيه، لو كان يقينهم به وتوكلهم عليه لكان حالهم على غير هذا الحال، ولكنهم يفعلون ما يفعلون غير مستحين من الله تعالى، غير مبالين بنظر الله إليهم، غير مبالين بمقت الله لهم، غير مبالين بأن الله تعالى لو اطلع عليهم على هذا الحال يمكن أن يعذبهم، وأن يخسف بهم، ومع ذلك لا يهمهم ولا يؤثر في قلوبهم، فهل هذا هو الإيمان ؟!

**لذلك المرء في حاجة إلى أن يجدد إيمانه مع الله تعالى**، وأن يجدد هذا اليقين في الله تعالى والتوكل على الله تعالى وحسن الظن بالله جل وعلا، وأن يجدد إيمانه بالآخرة والموت ولقاء الله والصحف والصراط والحشر وهذه الكرب والمصائب التي لا يطيقها أحد، فلو أحس بشيء من ذلك لتغير حاله، وتبدل من الفرح بغير الله ومن اللعب ومن الكسل إلى الحزن والبكاء على هذا الحال الذي يوشك أن ينزل به، ويوشك أن يلاقي الله تعالى به .

**الفصل الثاني:**

# بداية عهد جديد بعد رمضان

## الفصل الثاني: ابدأ اليوم مع ربك عهداً جديداً

فأول ما ينبغي فعله بعد رمضان ذلك العهد الجديد ، **العهد الأخير مع الله تعالى**، العهد الذي يملؤه الإيمان، وقرب الرحيل إلى الله تعالى، وتقديم محبة الله تعالى وخوف لقاء الآخرة وخوف الموقف بين يدي الله تعالى، فيدفعه إلى الخشية التي تملأ قلبه، ويدفعه إلى العمل، ويمنعه من المعصية، ويسارع به إلى الله تعالى.

**فمن خرج خائبًا خاسرًا من رمضان ولم يظهر عليه علامات القبول**، فما زال الطريق إلى الله تبارك وتعالى واسعًا، ينبغي أن يسلكه المؤمنون وما زال الباب مفتوحًا لتوبة صادقة يبدأها المرء في يومه بل من ساعته هذه، بهذا العهد الجديد، فيطلب من الله تعالى ويتضرع إليه أن يرزقه الوفاء به وأن يعينه عليه وأن يوفقه في طريقه وأن يسدده وأن يحفظه وأن يأخذ بيده وأن يكون له خير معين على أن يصل إليه سبحانه وتعالى وألا يعود عن طريقه أبدًا.

**وأما من ظهرت عليه علامات القبول** واستشعر ازدياد محبته وقربه من الله تعالى وتنزل رحمة الله عليه وزهده في الدنيا وإقباله على الآخرة وتحصيله لمغفرة الله تعالى فأهم الآثار التي تظهر على أولئك الذين قد غفر لهم **هو شكر الله تعالى** .

فالذين قد غفر لهم حالهم يتبدل بعد رمضان، فقد ظهرت عليهم آثار تخففهم من الأحمال، فهم لا ذنوب لهم ولا معاصي، أو قد تخففوا من هذه الذنوب والمعاصي والسيئات، فكلما تخفف المرء من الذنوب والسيئات والمعاصي كان أقرب إلى الطاعة، وكان قلبه أرق إلى العبادة، وأحن إلى الرجوع إلى الله تبارك وتعالى، كان قلبه أسلم لله

سبحانه وتعالى، كان قلبه أصلب في رد المعصية، وفي دفع الغفلة، وفي البعد عن الشهوات والسيئات والخطيئات، فظهور آثار الشهوات والبعد والغفلة يدل على عدم القبول ؛ لذلك كان ينبغي أن يظهر على هؤلاء في هذه الأيام آثار هذه المغفرة وأن يتفكروا في قضية الشكر التي تحتاج إلى مجهود ضخم من المؤمنين لتحصيله.

لهذا: **سيبدأ كل أحد بداية جديدة هذا العام بعد رمضان من ساعته هذه..**

المقصرون ...المفرطون،

**النادمون ....الباكون،**

**المرحومون .. المغفور لهم،**

**الكل لا بد أن يبدأ من هذه الساعة...**

**أولئك يبدءون بالتوبة والاستغفار، وأولئك يبدءون بشكر هذه الطاعات وتلك الرحمات وشكر تلك المعونات التي أعانهم الله تبارك وتعالى عليها في تلك الأيام.**

عسى أن يكون من الذين قال الله تعالى في صفتهم: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ (الطور ٢٥-٢٦) فهذه حالهم ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ (الطور ٢٥-٢٧) كانت حالهم الإشفاق... مشفقين من لقاء الله تعالى مشفقين من لقاء الآخرة مشفقين من حسابهم مشفقين من البعث والنشر مشفقين من الأهوال والكرب التي قال سبحانه وتعالى فيها: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (عبس ٣٤-٣٧).

هلا فكر الناس إذن في هذا العهد الجديد بينه وبين الله عز وجل؟... وهلا بدأوا هذا العهد بالنظر في أنفسهم وأهليهم وأولادهم وفيما بينهم وبين إخوانهم وأن ينظروا في حال أمتهم وأن يتحملوا مسئوليتهم وأن يعدوا للقاء الله تعالى جوابا كما قال تعالى: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (القصص ٦٥).

**الفائزون المقبولون** يكون عهدهم شكراً لله جل وعلا، على ما أنزل عليهم من رحمته وما تفضل عليهم من مغفرته، التي لو قضوا أعمارهم في شكرها لم يكن ذلك شيئاً، **والخاسرون المردودون** يبدأون طريق الاعتذار إلى الله تعالى والوفاء بعهدهم مع الله تعالى، ذلك العهد الذي لم يوفوا به في رمضان فكان سبب خسارتهم، وليعلم الجميع أنه كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفَتْح: ١٠] فهذا الأمر الذي ينبغي أن يتفكروا فيه ...

**من أوفى بعهده مع الله تعالى ينتظر الأجر العظيم من الله جل وعلا...**

وعلى الجانب الآخر فمن يعاهد الله على الطاعة ثم ينكص في عهده مآله أن يختم على قلبه بالنفاق، كما قال تعالى: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ (التوبة ٧٥-٧٧).

وإن كانت الآية نزلت في المنافقين ولكنها يلحق المؤمنون شيء من معناها، وأن يلحقهم شيء من هذا الأمر ؛ لأن علاقتك مع ربك ليست كذلك، أن تعاهده ثم تخلف،

ثم تعاهده وتخلف، وهكذا ... فتأتي الطامة أن يطبع على قلبه بهذا الأمر بالنفاق إلى أن يلقى الله تعالى.

ليست المسألة إذاً هزلاً في أخذ كلام الله تعالى، بل لا بد أن تأخذ الكتاب بقوة وتدع اللعب، وهو كما قال تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (الزخرف ٨٣) ولكن لابد أن تخاف من أن تعاهد الله تعالى ثم تخلف، وأن تخاف من أن يطبع عليك بهذا النفاق إلى أن تلقى الله تعالى، فيكون ذلك الخوف دافعا لسيرك إلى الله تعالى.

## الطريق إلى الوفاء بالعهد مع الله

وأول ما يحذر منه المرء الذي عزم على الوفاء بعهده مع الله تعالى، **هو ذلك الهجوم الذي يقوم به الشيطان على أهل الإيمان بعد رمضان مباشرة**، فإنه إذا جاءت ليلة العيد انفلتت الشياطين من أصفادها وهمها الأول أن تفسد على المتعبدين في رمضان ما كان منهم من عبادة، فعمل الشياطين في هذه الأيام من ليلة العيد إلى آخر أيام العيد ليس إلى أصحاب المعاصي والسيئات والذنوب، وإنما كل عملهم موجه إلى المتعبدين في رمضان ؛ ليحاولوا أن يعودوا بهؤلاء المتعبدين مرة أخرى إلى ما كانوا عليه من تقصير وتفريط، وقلة العبادة وعدم الإحساس بحلاوة الطاعة والإقبال على الله تبارك وتعالى.

لذلك فمن النادر أن تجد المتعبدين بعد رمضان في تلك الأحوال الحسنة التي كانت في رمضان ؛ لشدة ما يجلبه الشيطان من وسوسة وإفساد لما كان من هذا المعاملات والعبادات الحسنة في رمضان. وتختلف طرق وسوسة الشيطان باختلاف أحوال المؤمنين

بعد رمضان ولكن كل همهم أن منع المرء من أن يقوم وأن يجاهد نفسه، وأن يحاول السير في طريق الله كما سنوضح. **والسؤال: كيف يستطيع أهل الإيمان الوفاء بعهدهم مع الله تعالى والسير في طريقه بعد رمضان؟**

## أولاً: عدم اتباع وصية الشيطان: ابدأ في رمضان القادم

وهذه أول الحيل الشيطانية، فيأتي الشيطان إلى فريق من المؤمنين يعدهم ويمنيهم، ويقول لهم: هذا رمضان قد مرَّ ولم تخرجوا بالمغفرة، ولم تخرجوا بالرحمة ولم تعملوا الأعمال الصالحة التي كنتم تريدون أن تعملوها، ولم تقوموا لله تعالى بحق رمضان، ولم تفعلوا كذا وكذا، وها قد خرجتم من رمضان لا أظن أن أحدًا منكم ينتظر مغفرة الله، ولا أحدًا ينتظر أن يعتق رقبته من النار، من الذي عمل من الأعمال الصالحة ما يعتق به من رمضان؟ أو من الذي عمل من الأعمال الصالحة ما يكون سبب مغفرته؟ من الذي فعل ذلك؟

حتى إذا أيأسهم، وهو جاهم على الحقيقة، أنهم فعلاً في رمضان الماضي قبل هذا قد عاهدوا الله تعالى على أن يأتي رمضان هذا فيستعدون من أول يوم وسيبذلون جهدهم ووقتهم، وسيصلون ويقومون ويعتكفون ويتصدقون ويفعلون ويفعلون، وكفى ما مضى من رمضانات لم يستشعروا فيها مغفرة ولا لم يستشعروا فيها توبة ولا عتقًا من النار، ودخل رمضان وخرج رمضان وهم كما هم، وهي من حجج الشيطان وهي حجة صحيحة، أنه ها قد خرجت من رمضان ولم تفعل شيئًا!

وصية الشيطان لهؤلاء: أن تعقدوا العزم مرة أخرى، وأن تعاهدوا الله تعالى أن تكونوا في رمضان القادم أحسن منه في رمضان الحالي، وأن تبدأوا الاستعداد لرمضان

القادم مبكرا إن شاء الله وفي رمضان القادم ستكون أحسن إن شاء الله، وعاهد الله تعالى على ذلك وحذار ألا توفي، لابد أن توفي بذلك، هذا الشيطان يعظكم... هذا هو عهد الشيطان للمؤمنين اليوم.

فليكن المؤمن على حذر من هذه الوصية وليعلم أن الشيطان يقف له ليقطعه عن الطريق...**البداية ليست من رمضان القادم...البداية من الآن كما عاهدنا الله تعالى..إن لم تبدأ من الآن فلن تبدأ بعد...**

**إن قطعك الشيطان عن الطريق اليوم فسيقف له غدا...**

لن يأتي لك الشيطان في رمضان القادم ويقول لك :ها.. أنت رجل طيب، أنا قد قطعتك عن طريق الله تعالى بالأمس، وقد عاهدت ربك في الماضي فاذهب إن شاء الله أطع ربك واستكمل طريقك إليه؟!

لا ولكن سيقول لك : أيها الأحمق... **تتخيل أنني سأتركك تعبد ربك ؟!! ها ...كما فعلت بك في العام الماضي سأفعل بك في هذا العام**، قد ضحكت عليك في الأمس ومنيتك باليوم وبالغد، واليوم كالأمس والغد كاليوم وهكذا...

كما فعل به في رمضان الماضى والذى قبله والذى قبله، كل رمضان يأتي عليه ليقول له عندما لم يحقق أسباب المغفرة ولا أسباب الشكر، ولم تظهر عليه آثار هذه الأنوار من أنوار الطاعات.

قد علمت إذن ردك على قول الشيطان لك: إن شاء الله في العام القادم ستكون أحسن، أن تقول له: **إن هذا اللعب والتردد، وهذه اللامبالاة التي نأخذ بها كلام الله تعالى**

**وكلام الرسول ﷺ - لعلها تكون سببا في إغلاق باب التوبة**، لعلك تعيش إلى العام القادم كما عشت في المرة الماضية، ولكن من أدراك أن الله تعالى يفتح لك باب التوبة ؟ ويفتح لك باب المغفرة ؟ هو سبحانه وتعالى يريدك أن تأتي إليه ثم أنت على هذا الحال السيئ فإذا به يغلق باب التوبة دونك، بسبب سوء صنيعك وبسبب ترددك وبسبب كثرة لعبك وبسبب إخلافك وعدك مع الله تعالى وبسبب تركك للوفاء بالعهد معه جل وعلا .

## ثانيًا : الحذر من الغرور بعبادة رمضان

وقد يقول قائل : نعم أنا قد خرجت من رمضان وقد وفقت إلى العمل الصالح وفعلت كذا وكذا من الأعمال الصالحة، وهذه أيضًا من حيل الشيطان.

قد جاءك الشيطان هذه المرة ليطمئنك إلى أنك قد عملت الأعمال الصالحة، وليُلبِّس عليك، فيقول:لا ..أنت لست كغيرك، أنت قد اجتهدت فصمت وقمت إلى آخر هذا الاجتهاد الذي يدعي.

هذه إذن تلبيسات أخرى من تلبيس الشيطان **يريد بها أن يقعدك عن العمل، وعن مواصلة السير إلى الله تعالى**، وأن يكون هذا الشخص المسكين الذي ينظر هذه النظرة – يُدل بعمله على الله، ويستعظم عمله على الله تعالى، ويظن أنه قد فعل وفعل، وقد ذكرنا حديث النبي ﷺ الذي يهدم هذا التلبيس من الشيطان : « **لا يدخل أحدكم الجنة بعمله، قالوا : ولا أنت ؟ قال : ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمة منه وفضل** »[1] .

---

(١) رواه مسلم (٢٨١٦) كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله .

فإن جاءك الشيطان وقال لك : أنت صمت، وأنت قمت، وأنت فعلت، قل له : لا، كل ذلك لا يثني عن مواصلة السير إلى الله، وعن بذل الشكر له جل وعلا؛ فلو قال لك : أنت فعلت وأنت صليت، **قل له : إذن أنا أحتاج أن أشكر الله تعالى، وأن أخضع له،** وأوفر هذا الوقت والجهد لطاعته سبحانه وتعالى، أن يصرف كل هذه النعم التي أعطاه الله تعالى في مرضاته شكرًا له.

من خرج من رمضان وقد حَصَّل شيئا من التقوى لله تعالى كما ذكر الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة ١٨٣) يحذر من هذه التلبيسات الشيطانية بأن ير نفسه قد فعل شيئًا، وهو لم يفعل شيئًا على الحقيقة إذ هو محض فضل الله عز وجل، **وليخش المرء من أن يكون ذلك الاستعظام للعمل سببا في أن يكون من المطرودين المردودين من طريق الله تبارك وتعالى،** وأن تكون هذه بداية مرة أخرى للتفريط والتقصير في هذه الحقوق والعبادات والرحمات التي قد حصلها في رمضان.

**ولكن إن فعلوا شيئاً فهم يحتاجون إلى الشكر، وإن وُفقوا للشكر، فهم محتاجون إلى شكر الشكر ؛** لأن الشكر نعمة من الله تعالى لا تستطيع القيام بها إلا بتوفيقه، ولا يوفق الله تعالى أحدًا إلى الشكر هكذا، فإن وفقت إلى الشكر فهي فنعمة عظيمة تحتاج أن تشكر عليها وهكذا، **لتصل في النهاية إلى مرحلة العجز عن الشكر، وهي حقيقة الشكر!**

## ثالثًا: استشعار الحنين إلى الطاعة

وهو الحال الذي ينبغي أن يغلب على أهل الإيمان في هذه الأيام بعد رمضان ، وهو حال الحنين إلى الطاعة ، سواء خرج بعد رمضان مقبولاً، أم خرج مردودًا خائبًا

خاسرًا، خرج كما كان، وعاد سيرته الأولى قبل رمضان ؛ لا قيام ولا قرآن ولا ذكر، وإن كان شيء من ذلك فهو قليل لا يمكن أن يكافأ ما كان فيه في رمضان .

لذلك لا بد أن يكون الجميع على معنى الحنين إلى الطاعة والحنين إلى الوقوف بباب الله تبارك وتعالى ، والحنين إلى حلاوة الإيمان، والحنين إلى التعلق بالله تبارك وتعالى ذكره والإقبال عليه، الحنين إلى الطمأنينة إلى الله تبارك وتعالى إليه والركون له ﷻ.

وهي علامات المحبة والإقبال على الله تعالى التي تبين أن المؤمنين إنما هم في كل حال كما كان النبي ﷺ أحوالهم متصلة دائما مع الله تعالى، لا تتأثر هذه الأحوال بشيء إلا ما يكون سببا لزيادة المحبة والحنين والشوق إلى الله تعالى، **وكذلك استشعار حلاوة الإيمان وحلاوة الطاعة، والذكر والتوكل، وما كان في المرء من أحوال حسنة يود أن تبقى ويود أن تستمر ويود أن تزيد مع الله تبارك وتعالى،** ويستشعر فيها قلبه الثبات على طريق الله تبارك وتعالى والإقبال على الآخرة والزهد في الدنيا، ويستشعر فيها كذلك أنه يحب الاستعداد للقاء الله تعالى.

**فهذه المعاني تبعث في القلب هذا النور الذي يحمل على المجاهدة** وعلى ألا يترك باب الله تعالى أبدا مهما كان خائبا، ومهما كان مقصرًا ومهمًا كان على الحال السيئة التي أخذته الدنيا والولد والمال والمعيشة وما يتعلق بهذه المسائل التي تدعو إلى الغفلة، وتدعو إلى النسيان، وتدعو إلىٰ عدم التذكر وإلى عدم الوفاء بما عاهد الله عليه، أن يكون على الحال الحسنة التي كان عليها في رمضان.

وكثيراً ما نسمع هذه المقولة؛ وهى أن السلف كانوا يدعون الله تبارك وتعالى ستة أشهر أن يتقبل منهم رمضان، وستة أشهر أن يبلغهم رمضان التالي، فكأنهم متعلقون

بهذا الإقبال على الله تبارك وتعالى، وفي نفس الوقت من فقد ذلك، كان على حال الحزن والتألم مما رجع إليه من الأحوال السيئة، ومما عاد إليه من التفريط والغفلة، ومما عاد إليه من نسيان للعهود مع الله تبارك تعالى، والقعود عن الطاعة والنوم عن القيام والاجتهاد.

**ويرجى بهذا الحال أمران:**

**الأمر الأول:** مداومة الوقوف على باب الله تعالى ليفتح له أبواب الطاعة مرة أخرى، وأن يثيبه على هذه النوايا الحسنة، وعلى هذا الإقبال الجيد على الله تعالى.

**والأمر الثاني:** يوشك أن يبلغه ما لم يبلغه في رمضان وهو أن يعفو عنه ؛ لذلك كانوا يقولون : "اللهم عافنا واعف عنا" بعد رمضان أياما كثيرة يرجون بها العفو من ربهم سبحانه وتعالى.

فإذا لم يغفر لهم في نهاية رمضان بالصيام والقيام وليلة القدر، وهذه الأبواب من أبواب المغفرة والعتق من النار، فإن هذا الحنين إلى الطاعة والحزن على ما فات، يدفعه لأن يبدأ فيوفي بعهده مع الله تعالى في هذه الأيام، فيوشك أن يعفو عنه سبحانه وتعالى، ويفتح له هذه الأبواب من أبواب الطاعة والمغفرة.

ومع أن أيام العفو قد مضت إلا أن ارتباطه بها وركونه إليها، وحزنه على فواتها، ومناشدته ربه سبحانه وتعالى أن يفتح عليه بهذه الأعمال من أعمال الطاعة واستشعار حلاوتها والرجوع إليها، يمكن أن يكون سبباً مرة أخرى في أن يعفو عنه سبحانه وتعالى وأن يغفر له وأن يعتقه من النار، وأن يهيىء له سبيل الرشاد مرة أخرى، وأن يفتح له طريقه إليه جل وعلا، وأن يأخذ بيده تبارك وتعالى، وأن يقويه على هذه الأحوال.

## رابعًا: المسارعة في البدء من ليلة العيد

وأول الطريق الذي يبين هذا الحنين، تقتضي منك المسارعة بأن تعاود ربك هذه الأيام وأن تبدأ عهدك من ليلة العيد **بأن توفي مع الله تعالى**...فأهم الأيام التي يوفي فيها بعهده بعد رمضان والتي تبين حنينه إلى الطاعة، هذه الأيام الأولى من شوال.

**ولا يظن المرء أن أيام العيد هي أيام التساهل، التساهل في هذه الأيام هو بداية انفراط العقد**، وإذا بدأ عقد المؤمنين في الانفراط، وبدأ حبل التقوى في الانقطاع عن الله تعالى، وبدءوا يرجعون خطوة خطوة إلى الوراء، أو أن منهم من ينزل نزلةً واحدةً بسبب التساهل في العيد، فإن هذا ما نحذر منه.

فإنه في يوم العيد تنتشر الشياطين المصفدة، وتنتشر المنكرات والمعاصي ويقوم المرء بالخروج والانهماك في الدنيا والأهل والأقارب والأرحام، فإذا بقلبه يظهر عليه الضعف من أول ليلة، فيترك القيام في ليلته الأولى ويترك القرآن والذكر على أمل أنه إن شاء الله ما أن تنتهي أيام العيد حتى يعاود ربه ﷻ، فتطول هذه الأيام فلا يستطيع المعاودة ويقسو القلب عنها ويضعف هذا القلب، ولا يستطيع أن يقاوم ما انتقل إليه من معايشة الدنيا والدخول فيها والغفلة عن الآخرة والاستعداد لها، فيضعف هذا القلب، وما يزال الضعف مستمرًا حتى يجد نفسه في الحالة التي نحذر منها.

ثم يقول: ماذا أفعل؟ لقد ساءت الحالة ولا أُحِسُّ بحلاوة الإيمان ولا أحس بحلاوة الطاعة، وكأني لم أفعل شيئًا في رمضان، إلى آخر تلك الشكوى.

فقبل أن يمتد هذا الحال وتطول هذه الفترة التي يفتر فيها المرء ويقل إقباله ونشاطه على الله تعالى لا بد أن يأخذ حِذره لها؛ فلا تكون فترة العيد والسرور والأكل

سببا للبعد والتقصير والتفريط وسببا لترك ما كان عليه من أحوال حسنة ؛ لأن هذا دليل على أن هذه الأحوال الحسنة لم يكن لها هذا الأثر في قلب المرء .

إن المرء إذا أحب ربه وأقبل عليه، أصبح من الصعب عليه أن يتنازل عن هذه المحبة؛ **كيف يتنازل عن هذه المحبة** ؟ ذلك عنده كالموت ، أو كالسمك عندما يخرج من الماء، ويدل ذلك على أنه قد تعلق بربه فعلاً، وأنه مهما كانت الظروف لا يمتنع عنه ولا يقصر في حقه، وإنه مهما كانت الظروف فإنه لا يقدم محبة شيء على محبته، ولا يستوحش منه، بل ربه سبحانه أنيسه وحبيبه وحاضره كما قال : «**أنا جليس من ذكرني**»[1] .

ولننظر إلى حاله ﷺ التي تختلف عن حالنا اليوم وكيف كان لا يفتُر يوما عن طاعة ربه جل وعلا، فقد كان عمله دائما ﷺ ، وكان يقول : «**أحب الأعمال إلى الله ما داوم عليه صاحبه**» [2] فلم يكن عمله في رمضان فقط بل كان عمله متصلاً، فإذا جاء رمضان أو أي موسم من مواسم المغفرة العظيمة إذا به يزداد اجتهادًا ليحصل جائزة الرب وليحصل تلك الرحمات في هذه الأيام التي يقبل فيها المرء على ربه في العشر الأواخر.

لذلك ينبغي أن يعاود المرء ربه سريعا ، وأهم ما يعاود المرء إليه شيئين:

## الأول: معاودة قيام الليل من ليلة العيد

أن يقوم الليل من ليلة العيد...**مهما عارضه من معوقات: الأهل والمال والولد والزيارة** ، كل هذه المعوقات ليست لليوم فقط، وإنما هذه المعوقات التي ترده على عقبه من أوله ومن آخره، والتي تكون لها آثارها السيئة بعد ذلك.

---

(1) سبق تخريجه.

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه (٧٨٥) من حديث عائشة رضي الله عنها .

**الثاني: صيام ستة أيام متتابعة بعد يوم العيد مباشرة**

والأمر التالي وهو الذي بينه النبي ﷺ بقوله: «**من صام رمضان وأتبعه ستا من شوال كان كصيام الدهر**» (١) ليدل بذلك على عدم تململه من الصيام ويدل أيضًا على الحنين إلى أيام رمضان.

وليحذرمن أن يأتي له الشيطان يقول له : تصوم ستة أيام متتابعة ؟ هذه كثيرة عليك !! صم الاثنين والخميس، صم يومًا وأفطر يومًا، الأيام التي سيكون فيها زيارات لك أو ستزور أهلك، أو يزوك الناس أَفْطِرْ فيها؛ وهكذا... ويظل الشيطان يوسوس له حتى يخرجه عن هذه العزيمة، ويخرجه عن هذا الهم من هموم الطاعة والعبادة.

فإذا به قد انفرط عليه حاله وإذا بشوال يمر ، وإذا به لم ينته من هذه الأيام الستة ، ويقول : غدًا ذو القعدة، ليحاول أن ينتهي من هذه الأيام ؛ لذلك كان لا يظهر فيه هذا العمل ذلك الصيام وذلك القيام .

**وقد أشرنا في الزمان الماضي أن علامة قبول الحسنة أن يوفق للحسنة بعدها**، وأن علامة رد الحسنة أن يفعل السيئة بعدها ؛ لذلك يقول الإمام ابن رجب في لطائف المعارف: "ما أقبح السيئة بعد الحسنة ؛ تمحق هذه الحسنة، وما أحسن الحسنة بعد السيئة تمحها، وأحسن من ذلك كله الحسنة بعد الحسنة تزيدها وتباركها عند الله تبارك وتعالى"؛ والمرء يحتاج إلى رسوخ هذا المعنى في ذهنه وهو أن يوفق للحسنة بعد الحسنة، **وطريق ذلك الوفاء بما عاهد الله عليه** ؛ لأن التوفيق إلى الحسنة يعني أن يوفق للقيام بعد

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه (١١٦٤) من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

رمضان فيدل ذلك على قبول القيام في رمضان، وأن يوفق للصيام بعد رمضان فيدل ذلك على قبول الصيام، وكذلك في الصدقة ودوام الذكر، و تلاوة القرآن وإدمانه والإقبال عليه والتأمل فيه والتدبر.

علمنا إذن كيف خرج المؤمنون يتفكرون...

**كيف يوفون بعهدهم مع الله تعالى مرة أخرى...**

**كيف يبدأون مع الله تعالى بداية جديدة...**

**بداية الاستقامة على السير في طريق الله...**

**كيف يلازمون طاعة الله تعالى مرة أخرى...**

وكذلك أن يتعلموا كيف يكون حالهم مع الله تبارك وتعالى لا تردد فيه ولا تراجع، وأن يقبلوا على الآخرة، وأن يزهدوا في الدنيا، فهذه هي الأحوال التي ينبغي أن يتطلع إليها المؤمن، وأن يشتاق إليها مع الله تعالى، لا أن يكون كعبد السوء، يوفي مرة ويتراجع مرة، يتوب مرة وينكص مرة، يطيع مرة ويعصي مرة؛ إذا كان ابنك على هذا الحال لا ترتضيه، إذا كان من يعمل عندك يطيعك مرة ويعصيك مرة ويتأخر عنك مرة ويتكاسل مرة.. لابد أن تطرده في النهاية !

**الفصل الثالث:**

# محبة الله تعالى

## الفصل الثالث: محبة الله تعالى

وهي الأمر المهم في طريق السير إلى الله تعالى والتقرب إليه ، فإنه **من سار في طريق الله صار أحب إلى إليه** وأقرب إلى إليه ﷻ، وأعلى منزلة عنده جل وعلا ، وهي مسألتنا التي نريد أن نتحقق بها.

إن أولى صفات المؤمنين المتقين اتصالهم الدائم بالله تعالى، وهذه العلاقة الدائمة مصدرها المحبة، فهم لا ينفكون عن ربهم جل وعلا ولا يغفلون عنه.. في ليلهم ونهارهم.. في سفرهم وحضرهم.. في سلمهم وحربهم.. في سكونهم وحركتهم.. في خلطتهم وخلوتهم.

يعني: لا يكونون مع الله تعالى في رمضان ثم بعد رمضان ينقطعون عنه، ولا يكونون معه في حالة الخلوة به ثم ينقطعون إذا اختلطوا بالناس، ولا يكونون مع الله تعالى في المسجد فإذا ذهبوا إلى أشغالهم وأعمالهم واختلطوا بالدنيا وأخذتهم مشاكلها غفلوا ونسوا ربهم!!

القلوبُ المتعلقة بالله تعالى - قلوبُ المتقين - إنما هي قلوبٌ متعلقة بالله تعالى لا يفصلها زمان ولا مكان ولا عمل، إنما هي متعلقة بالله ليلها ونهارها لا تفتر عنه؛ وهذا دليل المحبة...

### ثم ماذا بعد؟

يأتي «رمضان» كموسم من مواسم المغفرة فتزداد هذه المحبة وتَثْبُت وترسخ، فهم قبل رمضان يحبون ربهم ومتعلقون به ، ثم جاء رمضان في النِّصْف فرَفَعَ هذه المحبة

وزادها وكان سببًا في أعمالٍ وأحوالٍ أخرى تزيد من ارتباطهم بالله وتعلقهم به وإقبالهم عليه وتوكلهم عليه وثقتهم فيه ورجاءهم فيه وإنابتهم إليه سبحانه وتعالى.

.. فلا ينفكون عن ربهم، كحديث النبي ﷺ عن الله جل وعلا: «**وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ. فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**»[1].

## علامات المحبة

فإذا أحبَّ ربه، تحققت فيه بعض علامات هذه المحبة، التي تبين - إن ظهرت على المرء وتحقق بها - أنه صار في الطريق المستقيم، إن جاءه رمضان أو جاءه العشر الأوائل من ذي الحجة أو جاءته مواسم المغفرة وأيام الرحمة إذا به تعلو تلك المحبة، فيأخذ قسطًا جديدًا من محبة الله تعالى يضاف إلى ما عنده من المحبة فتزداد محبته لله، فيخرج بعد رمضان أشدَّ محبةً.. لا يخرج بعد رمضان أشد تراجعًا وأشد نُكُوصًا وأشد تَقَهْقُرًا عما كان فيه، إن قلبه قبل رمضان كان مُتَشوقًا لأيام المغفرة ومواسم الرحمة، فجاءته فزادته هذه المواسم من محبة الله تعالى ومن الإقبال عليه والتعلق به.

وانْظُر إلى من يُحِب أحدًا ترى فيه علامات المحبة التي تكون دليلًا على هذا الحال الحسن الذي وصل إليه ، بأنه أحسن سيرًا إلى الله تعالى، وأقبل على الله تعالى وأكثر جدًّا واجتهادًا وبذلا في سيره إلى الله تعالى.

---

[1] رواه البخارى (٦٠٥٠) وأحمد (٢٥٦٠٨) وابن حبان (٣٥٤).

**وكلٌ يدّعي المحبة لله تعالى ويقول: هو يحب ربه**، ولكن الله تعالى عقد الامتحان في محبته سبحانه وتعالى، ووضع الأعلام التي تبين من يحب ربه ممن لا يحب ربه، وتبين هذه الصور التي ينبغي على المؤمن أن يرى هل هو كذلك أم لا، وأن يبدأ فيحاسب نفسه اليوم على هذه المعاني، وإلا من ضاعت دنياه فقد ضاعت أخراه، وإذا لم يكن على هذا الحال دل ذلك على بعده جداً عن طريق الله تعالى ، فما هي هذه المعاني التي تدل على محبة الله تعالى ؟

## أولًا : تقديم محبة الله تعالى ورسوله على كل محاب النفس

فالمحبون يقدمون محبة الله تعالى ورسوله على كل محاب النفس، وإذا تعارضت محبة الله تعالى ومحبة النبي ﷺ مع الولد والمال والأهل، وتعارضت مع الجاه والسلطان، وتعارضت مع النفس والهوى، وتعارضت مع النوم والكسل، ومع شهوة الأكل والطعام والنكاح قدمت محبة الله تعالى عليها لذلك قال ﷺ : «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين**»[1].

لا يجد شيئاً من حلاوة الإيمان من قدم شيئاً على محبة الله تعالى ومحبة النبي ﷺ ، وكذلك «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ »[2] وانظر إليك كيف تقدم نومك وراحتك على القيام لمحبة الله، وعلى القيام

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه (١٤) كتاب الإيمان ، ومسلم (٤٤) كلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا .

(٢) رواه الإمام البخاري (١٦) كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان ، ومسلم (٤٣) كتاب الإيمان ، باب بيان خصال من اتصف بها وجد حلاوة الإيمان .

لذكره، وعلى القيام لطاعته، وكيف تفضل أكلك وشربك وشهوتك على القيام والصيام والذكر والقرآن والقيام بمصالح الدين ومصالح المؤمنين، وكيف تفضل بخلك وحرصك وشحك على الدنيا على أن تنفق له وأن تعطي له وأن تبذل له، ليعطيك أكثر وليفيء عليك أحسن وليرفع منزلتك ويعلي درجتك . انظر إليك أيها المسكين كيف تحرم نفسك عطاء الله تعالى، ورحمة الله تعالى، وكرم الله تعالى، وجود الله تعالى، ومغفرة الله تعالى، وفي النهاية محبة الله تعالى.

**أنت الذي تقطع على نفسك هذا الطريق** بأن تقدم محابك ومراضيك، أن تقدم ما تشتهي وما تميل إليه على ما يحبه ربك ويرضاه، واعلم أنك إن قدمت شيئًا على محبة الله تعالى كان شؤمًا عليك، **فإذا قدم المرء شيئًا على محبة الله سبحانه وتعالى عُذِّب به**، فكان سبب تعذيبه في الدنيا والآخرة ؛ لأنك ما تقدم من شيء تحبه في الدنيا إلا فارقته، كما قال النبي ﷺ : « **أحبب من شئت فإنك مفارقه** »[1] . **أحبب من شئت فسوف تفارقه ، إلا محبة الله تعالى**، فإنك تجد هذه المحبة معك في القبر، ومعك في الحساب، ومعك يوم يقوم الأشهاد، حتى تدخل الجنة وليس لك شيء أحب منها كما قال سبحانه وتعالى:﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ (التوبة ٧٢) .

**فانظر إلى حال المؤمنين المتقين إذ تصادمت هذه المحبة، مع النوم، مع الأكل، مع الشرب، مع الولد، مع المال، مع الدنيا، مع الجاه، مع السلطان، مع غضبه لنفسه، كل ذلك يقدمه على محبة الله تعالى.**

(١) أورده الإمام المنذري في الترغيب والترهيب (٦٢٧) وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٤٣٥٥).

وانظر إليك حيث تعارضت عندك علوم الشرع ومحبة الله تعالى وخلقه، إذا بك تخترع عذر كذا، وتتأخر بسبب كذا، وتقدم عليه كذا وكذا، وتراك تفرط في هذه الأمور.

**وهو أول هذه المعاني الذي يجب أن تقيس نفسك به**، وأن تقيس إيمانك به، وأن تعلم أنك قد تقدمت في طريق الله تعالى، أو أنك ما زلت كما كنت سيرتك الأولى، كما وصف حال الشيطان في قوله تبارك وتعالى: ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ ثم حذرنا من اتباعه فقال: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ .

فمحبة الله هي المحك، ومحبة الله تعالى يتبعها محبة النبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ وعواقب هذه المحبة: مغفرة الذنب، وعدم العذاب كما قال تعالى في هذا المعنى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾(المائدة ١٨) قال تعالى لهم ردًّا على هذا القول الفاسد: ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ فكانت المحبة دليلا على عدم العذاب، وكانت المحبة دليلا وطريقًا إلى المغفرة: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ والثانية: ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ لو كنتم أحباءه ما عذبكم.

لذلك كان هذا الطريق هو الذي يبين المؤمنين الصادقين المتقين، من هؤلاء المدعين الذين يدعون محبة الله ويخالفون رسوله سرًّا وجهرًا، ويخالفون الله تعالى وهم يعلمون ذلك في بواطنهم، وفي أعمالهم، وفي أعمال القلب وأعمال الجوارح، ويقدمون محابهم ونومهم وكسلهم ودعتهم وخوفهم، ويقدمون ذلك كله على محبة الله تعالى، إن تعارض شيء مع طاعة الله تعالى، إذا بهم يقدمون هذا الشيء ويؤخرون الطاعة ويسوفونها، ويقومون بهذه الطاعة على الملل وعلى المشقة وعلى الخروج منها، لا على

محبتها والإقبال عليها ودوام الوقوف بها لله تعالى، أو على محبة أعمال الإيمان، المقربة إلى الله تعالى .

## ثانيًا : كراهية ما يكره الله تعالى من المعاصي

فإذا كانت المحبة هي المحك الذي يبين الإيمان من عدمه ، كان العكس كذلك، وهي أن المحب لا يعصي محبوبَه أبدًا ، إلا أن يقع منه ما يقع على سبيل البشرية التي ليست معصومة إلا للأنبياء، فكيف يدعي محبته وهو يعصيه أو وهو يخالفه ؟!

تعصي الإله وأنت تزعم حبه لعمري إن ذلك في القياس شنيع

إن كنت تزعم حبه لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

ومن ثمَّ فإنَّ المعصية تكون عليه أشدُّ شيء وأمرُّ شيء على نفسه وقلبه، أن يخالف ربه ﷻ أو أن يعصيه، لماذا؟ لأنه منشغل بالمعصية والرجوع عن الله تعالى؟ من كان منشغل بالطاعة والمحبة متى يفكر في المعصية؟ ومتى يكون في قلبه مكان لها؟ ومتى يكون في عمله ولسانه شيءٌ من هذه المعصية؟ وإن كانت المعصية تمنع كمال المحبة لا أصل المحبة ،على عقيدة أهل السنة، فإنها في نفس الوقت تبين **أن هذا المحبَّ إنَّما هو منشغل بالله تعالى لا بغيره**، حتى يقع في المعصية ويمارسها، فإنه حينئذ قد حاد عن طريق المحبة، واختار طريق المعصية والغفلة، وشتان الفارق بين الطريقين !

إنَّ طريق المحبة لا يبقي للمحب شيئاً حتى يفكر في المعصية، أما طريق المعصية فأين المحبة التي منعته المعصية ؟

فلا يكون المرء محبًّا إذا أحب ما يكره حبيبه أبدًا، فتراه يسارع في **أن يعلم ما يكرهه فلا يفعله**، أن يعلم ما يكرهه فلا يأكله، أن يعلم ما يكرهه فلا ينتصر له أبدًا ولا يغار عليه، أن يعلم ما يكرهه في كل أمره وتصرفه، وقوله وظاهره وباطنه وسره وعلانيته، إذا به لا يأتي شيئًا من ذلك البتة.

وهي من المسائل المهمة التي لا نرى استقامة أحوال المؤمنين المتقين عليها: أن تكون المعصية أمر في حلقك من الصبر، ذلك العشب المعروف بالمرارة.

فلا يكون محبًّا لربه قد ظهرت عليه آثار المحبة، وآثار الطاعة، وآثار الإقبال على الله تبارك وتعالى، وآثار التجافي عن دار الغرور، والميل إلى دار الآخرة، والزهد في الدنيا، والاستقامة على أمر الله تعالى، إلا أن تكون المعاصي أصعب شيء على قلبه.

**أصعب شيء عليك أن تعصيه سبحانه وتعالى. وهو ينظر إليك**، وهو يكافئك بالنعم، وهو يوسع عليك، وهو يستر عليك، وهو يترك فضيحتك، وأنت تعصيه سبحانه وتعالى !! وأنت قد امتلأ قلبك من الوساوس والصور والخطرات، التي تعلم من نفسك أنه لو اطلع عليها الناس لوبخوك، ولسودوا وجهك من ادعائك محبة الله!!

كيف امتلأ قلبك، الذي هو بيت الله تعالى، بما يخالفه وبما يغضبه من وساوس الشيطان وصور الفسق والفساد التي قد امتلأت بها قلوب العباد؟ ، الله تعالى مُطَّلع على ذلك، ينظر إليك ينبغي عليك إذاً أن يكون قلبك خالصًا له، سليمًا له.

إذا وقع في بيته - سبحانه وتعالى - ما يكره تراك أقرب إلى الغضب وإلى المقت أو إلى المحبة ؟

**إذا نظر إليك وأنت تعصيه سبحانه وتعالى، وتخرج عن أمره، وتغضبه ؛ تراه يكون عنك راضيا ؟ تراه ينزل عليك رحمته، وينزل عليك عفوه سبحانه وتعالى ؟**

**أو أنك تكون في محل المقت والغضب!...**

فإذا سولت لك نفسك أو الشيطان الوقوع في معصية لا بد أن تكون على أشد الحسرة والأسف والتوسل والمسارعة إلى التوبة، والمسارعة إلى الخروج من هذه المعاصي والسيئات، والندم على وقوعها منك وكذلك البكاء لله تعالى أن يرحمك فيها، أن يتوب عليك، وأن يخرجك منها مع العزم على ألا تعود إلى ذلك أبدا، ما شاء الله تعالى.

## ثالثًا: إدمان ذكر الله تعالى

ومن علامات وآثار هذه المحبة دوام ذكر الله تعالى، فمما يبين محبة الله تعالى هو دوام الذكر، وقد وجدنا النبي ﷺ يذكر الله تعالى على كل أحواله ، فلم نجده ﷺ يفتر لسانه - فضلا عن قلبه - عن ذكر الله تعالى.. وعن الاتصال بالله تعالى.. وعن الثناء على الله تعالى.. وعلى تسبيح الرب ﷻ.. وتنزيه الرب جل وعلا.. والاعتراف له بالعجز والضعف والمسكنة.. وأنه لن يقويه أحد إذا لم يُقَوِّه ربه ﷻ.. ولن يعينه أحد إذا لم يُعِنْهُ ربه.... وكان ﷺ دائم الدعاء - بعد صلاته: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[1].

فأول ما يعود بالمؤمنين المتقين إذًا إلى حديقة التقوى ذلك الذكر الذي يبين هذا الحال من الأنس بالله تعالى.

---

[1] أبو داود (١٣٠٥) والنسائي (١٢٠٩) وأحمد (٢١٥٤٧) وابن خزيمة (٧٣٣) والحاكم (٩٤٨).

ثم إن **الذكر هو باب الولاية الأعظم لله تعالى**، بابه الذي يدخل منه أولياء الله - جل وعلا - وأحباءه المتقون، أو هو الباب الذي إذا سلكه الذاكرون وصلوا إلى ولايته تعالى وتقواه كما ذكرت الآيات في صفات المتقين التي أشرنا إلى شيء منها.

ونحن نقول ذلك وأهلُ الإيمان ما زالوا كما هم سامدون؛ لا تجدهم - عندما تذكر هذه الحالة من حالات الذكر لله تعالى - يتحركون للذكر.. لا في جلوسهم ولا في خروجهم ولا في دخولهم، وكأن القائل منهم يقول: إن شاء الله تعالى عندما أخرج سأذكر الله تعالى وسأحاول.. ويأتيه الشيطان وتأتيه المشاغل فهل يثبت بالذكر؟! لا.. يضعف ويقوى عليه الشيطان ويُخْرِجه عن هذا الذكر، مع أنه لو كان في جهاد وقتال ما فتر عن هذا الذكر لأنه محب لربه متعلق به مقبل عليه، لو قطعوه ما فتر عن ذكره وما كَلَّ لسانُه عنه لأن قلبه منشغل به متعلق به، كُلُّ همه في الدنيا أن يرضيه وأن يقبل عليه وأن يقوم في خدمته وأن يكون في شغل الله تعالى وأن يكون من العاملين عنده كما ذكر الله جل وعلا: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٦].

والعلماء يقولون في دوام الذكر : أن يكون مستهترًا بذكر الله تعالى، يعني ألا يفتر لسانه، وألا يصبر قلبه عن ذكر الله تعالى، فإن من أحب شيئًا أكثر من ذكره، وإن ذكرك لله تعالى يجعلك في محل ذكره لك، كما قال تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [ البقرة : ١٥٢ ].

فذكره يبين إقبالك عليه، واستقامة قلبك بعد هذه المواسم من مواسم المغفرة، أما أن يعود لسانك وقلبك للغفلة، فهذا دليل على عدم استفادتك من موسم المغفرة، ودليل على أنك لم تشكر ربك عليها فلم يزدك منها، وأنك قد عصيت وغفلت عنه فعدت إلى حالك السيئة الأولى، لأن ترك الذكر دليل الخسران كما بين المولى سبحانه

وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [ المنافقون : ٩ ] .

**وقد يقول القائل : كيف يذكر الله تعالى في عمله وشغله ؟**

نقول: كان النبي ﷺ أكثر شغلًا وأكثر عملًا، وكان يُفضِّل المجاهد الذاكر على المجاهد الذي لا يذكر. فما بالك بغير الجهاد؟! يعني: كان على حال الذكر في أشد الحالات التي ينسى فيها المرء نفسه وربه وينسى كل شيء وهو مُلَاقٍ قِرْنَهُ، وكما ذكر الرب جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥]. فبينت هذه الآية الكريمة أنه في أَحْلَك الظروف وفي أصعبها وأشدها كان لا يفتر، بل كانوا يتميزون بهذا الحال الحسن، وهذا الحال من أولى الأحوال التي تدل على استمرار علاقة المرء بالله وعلى محبته لربه وعلى عدم فتور لسانه وقلبه عن الله - جل وعلا.

وأعلى درجات الذكر والأنس التي ينبغي أن يُدمنها المؤمنون اليوم والتي تعود بهم مرةً أخرى إلى حظيرة القُدُس، إلى ربهم - جل وعلا - وأنسهم به: **هو القرآن الكريم**؛ فهو أعلى ما يذكرون به ربَّهم وأعلى ما يُقبلون به عليه، وأفضل ما يتلون من كلام هو كلام الله - جل وعلا. فإن فَرغوا من أذكارهم المحدودة المشروطة بأوقاتها إذا بهم قد استَغَلُّوا بقية أوقاتهم في إدمان هذا القرآن، محبة وتلاوتة، وتعلمًا وتعليمًا، واسترشادًا ويبين ذلك استشفائهم به كما بين المولى: ﴿ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ ﴾ [ فصلت : ٤٤ ] ؛ لذلك كان دليل محبة ذكره محبة كلامه سبحانه وتعالى، ومن جفى كلام الله تعالى وبعد عنه، زل مرة أخرى على تلك الحال السيئة.

فمن أعظم الأحوال التي تبين لك أنك صرت في طريقه واقتربت منه وبين ذلك حالك هو إدمانك كلام الله تعالى، هو إدمانك تلاوة كلام الله جل وعلا، ومحبتك لهذا الكلام، وتدبرك لهذا الكلام، صلاةً قراءةً وتلاوة وقيامًا وذهابًا وإيابًا، كل ذلك لا يفتر عنه في محبة الله تبارك وتعالى، وإلا تعرض للخسران كما ذكرنا، وقد ذكرنا تفاصيل هذا الكلام، وإنما نبين هذه الأحوال التي ينبغي أن يتفحصها المؤمن في حاله، أن ينظر في أحواله، إن سار في هذه الأحوال الحسنة، أو مازال غافلاً منهمكًا، مازال بعيدًا، مازال ناسيًا لله تعالى، ناسيًا للدار الآخرة ؟

وانظر إلى كلام الله تعالى الذي أشار إلى معنى التصدع والإقبال على الله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [ الحشر : ٢١ ]، يعني : لعلهم يتفكرون في أحوالهم، لو كانت جبالاً لقد انصدعت وخشعت لله تعالى، فما بالهم صاروا أصلب من الجبال وأشد منها جمودًا وأشد منها قسوة وأشد منها بعدًا؟

## رابعًا : الخلوة بالله لمناجاته

وهي الحال التالي الذي كان عليه النبي ﷺ ، وهو حال الخلوة بربه لكثرة مناجاته والإقبال عليه، فيغتنم هدوء الليل وصفاء الوقت في الدعاء والصلاة والذكر، وينتظر النزول الإلهي الذي ذكره النبي ﷺ فقال:« ...يَهْبِطُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ؟»[1].

[1] رواه مسلم (١٢٦٩) وأحمد (٨٧٧٣) والدرامي (١٤٥٥).

وكذلك ينتظر التحقق بالحال الذي ورد في قول الله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧] ، ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨] ، فهذان الوصفان من أهم الأوصاف التي يحاول المرء في هذه الأيام أن يعاود نفسه فيها.

وإن كانت الخلوة قد شُرعت للمؤمنين في الاعتكاف في رمضان؛ بأن يعتكف على الله وألا يختلط بالناس، وأن يكون بقلبه وقالبه مع الله جلَّ وعلا، لا يكلِّم أحداً ولا يخالط أحداً ويؤخر أكلَه وشربَه، بل ويترك أكلَه وشربَه أصلاً ليفرغ قلبه ووقته وجهده لربِّه ﷻ، كان صلى الله عليه وسلم يواصل ليله بنهاره لا يأكل ولا يشرب تفريغاً لهذا الوقت ونسياناً للأكل والشرب في جانب المحبة والتعلق بالله تعالى.

**فإن النبي ﷺ ما كان يفرط في هذه الخلوة أبداً بسبب أشغال الدنيا**، وهذا حال أهل الإيمان اليوم فتجد من يقول إن شاء الله عندي كذا، وأحوالي كذا، ولا أستطيع أن أعتكف، لا ، ولكن علمهم النبي ﷺ أنَّهم إن لم يستطيعوا أن يعتكفوا هذه الأيام العشر الأواخر من رمضان فإنهم يعتكفون العشر الأُول من شوال، فيدخل عليهم العيد فإذا بهم مُعيِّدون، ويذهبون إلى المعتكف مرةً أخرى قضاءً لحقِّ الخلوة، وقضاء لحقِّ الاعتكاف، وقضاءً لحقِّ الربِّ ﷻ ، وملأً لهذا القلب من معرفة الربِّ والإقبال عليه والشوق إليه، لا يفرطون في ذلك أبداً.

وقد كان ﷺ يقضي هذه الأيام ليقوم فيها بهذا الحق تعليماً منه لأمته، مع أنَّه ﷺ كان على تعلق القلب بربه جل وعلا على كلا الحالين معتكفاً، أو غير معتكفٍ ، وكذلك إن اختلط بالناس ﷺ - كما يقول العلماء كابن القيم وغيره- إنَّما كان يخالطهم ببدنه

ويقضي حوائجهم، ، أما قلبه فهو موصول بربِّه، لا يُظن به غير ذلك ﷺ؛ وهذا الحال إذن هو الحال الذي ينبغي أن يتفكر فيه المؤمنون.

**الأنس بالله هو سبب التنعم في الخلوة**

فإن كانت الخلوةَ بالله تعالى من علامات المحبةِ ، فإن أخذ حظِّ النفس من الأنس بالخلوة يكون بتفريغ وقت يختلي فيه المرء بربه، فتكون هذه الخلوة سبيلًا لأنسه بالله تعالى، ويكون هذا الأنس سبب تنعمه في هذه الخلوة.

**تُرى المؤمنون المتقون وقدوتهم رسول الله ﷺ أُنسهم بغير الله!** أنسهم بالزائل في هذه الحياة الدنيا من الناس والأشخاص والأموال والأولاد والأعمال؟! أنسهم بذلك كله! كل شوقهم ذلك! أم أن لهم أنساً وشوقاً أعلى ونعيما أجلَّ في أن يأنسوا بربهم؟!

وهي الحالة التي تصحح محبةَ المرء لربِّه، وتقوي في قلبه العلاقة بالله تعالى، وترفع في قلبه الشوق إلى الله جل وعلا، وتقوي بدنه وقلبه على دوام الطاعة والنشاط في هذه الطاعة وعدم استثقالها، فتراه خلقاً آخر بعد ما يخلو بربه ويستأنس به، وتراه قد صار يستوحش من كل أحد.

**التهجد...الطريق الموصل للأنس بالله تعالى**

والأنس بالله تعالى والأنس بمناجاته ﷻ له طريقه ، ما هو ذلك الطريق؟ **المواظبة على التهجد لله تعالى**، بأن يغتنم المرء هدوء الليل وصفاء النفس في أن يدعو ربه وأن يتملقه، فدخول الليل عنده أحلى شيءٍ يحبه، فالمحبون والمشتاقون ينتظرون دخول الليل حتى يختلوا بأحبائهم، وينفردوا بهم، فهذا حالهم.

لَمَّا أوحى الله تعالى إلى عبد من عباده: إن لي عباداً أحبهم ويحبونني، ويشتاقون إلي وأشتاق إليهم، ويذكرونني وأذكرهم، قال: ما علاماتهم؟ قال: يترقبون في النهار الظلال كما يترقب الراعي الحنون الظلال بأبله، يحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها، فإذا جنهم الليل، واختلط الظلام، وفرشت الفرش، وخلا كل حبيب بحبيبه، صفوا أقدامهم، وافترشوا وجوههم- يعني سجدوا لله تعالى وبكوا -وناجوني بكلامي، وتملقوني بإنعامي، فمنهم الباكي ومنهم المتألم ومنهم الشاكي، والقاعد والقائم، والراكع والساجد، **بعيني ما يتحملون من أجلي**، وبسمعي ما يشكون من محبتي.

**فهم ينتظرون دخول الليل ليكونوا على هذا الحال** ، لا على الحال الذي نحن فيه، والذي يعلمه كل منا جيداً من نفسه، تدخل المغرب والعشاء ويدخل الفجر وضاعت الليلة، إنهم ليسوا كذلك.

ذلك الحال الحسن هو الذي ينبغي أن يحن إليه أهل الإيمان، **حتى يكون ذلك سبباً لأن يفتح عليهم، وأن ينير قلوبَهم، وأن يأخذهم إلى طريقه، وأن يفيض عليهم من محبته**، وأن يقوي آذانهم وأفئدتهم على القيام بآثار وعواقب هذه المحبة، تُرى المرء في حاجة إلى ذلك ليظهر هذه المحبة أو ليعود ليفهم كيف يحب ربه ويقبل عليه ؟

**هؤلاء همهم هذه الطاعة**، أولى محبتهم هذه الخلوة التي نتكلم عنها، **فليكن للمرء إذن خلوته في يومه**، لا يمر يومٌ من أيامه وتغرب الشمس إلا ويحنُّ ذلك القلب إلى الوقوف بين يدي الرب ليكون ذلك من تمام المحبة ومن آثار المحبة، ومن علامات المحبة، ومن كمال الأنس بمنجاته ﷻ، ومن كمال التنعم بالخلوة به ﷻ ، ومن كمال الاستيحاش مما ينقض هذه الخلوة أو يضعفها في قلبه.

**أنسك بغير الله هو سبب ضعف قلبك**

إن الخلوة والأنس بمناجاة الله تعالى ، هي السبب في تصفية النفس وإقبال القلب على الرب، **بل وإقبال الرب ﷻ على العبد**، و كذلك تكون هذه الخلوة من كمال الأنس بالله تعالى، فإذا ما أنس المرء بربه استوحش من غيره، وقلت خلطته فيما لا يعود عليه بخير في معاشه ومعاده، يعني كانت خلطته وخلوته بالله تعالى سبباً في أن يصلح من قلبه؛ لأن من صلاح القلب ترك الخلطة بالناس، ومن أعظم أسباب فساد القلب هو كثرة الخلطة؛ أن يختلط بالناس وأن يكثر من الأنس بهم والكلام معهم، لأن ذلك كله يخرج القلب عن الأنس بالربِّ، فإذا ما خرج القلب عن ذلك ضعف عن العبادة وقعد عن السير في الطاعة وأعمال المحبة، ووجدته قلباً ضعيفاً لا يقوم بشيء.

**انظر إلى نفسك اختلطت ببعض خلق الله شيئاً ما**- ساعة أو ساعتين أو غير ذلك من الوقت- وكنت قد عزمت أن تقوم إلى الطاعة وإلى القيام وإلى القرآن، وجدتَ قلبك قد ضعف عن القيام، ولا تستطيع أن تواصل القرآن والذكر، وما عاهدت نفسك أن تقوم به، ليدلَّ لك ذلك على **أنَّ أنسك بغيره قد أضعف قلبك، وأن اختلاطك بغيره كان السبب في بُعدك عن ربك**، وفي تغييم هذه الأنفاس من أنفاس الخلق على هذا القلب حتى تشوش عليه مقصوده وتوقعه في الغفلة، حتى تكون سبباً في عدم تلقيه هذه الأنوار من أنوار الإيمان التي يضعها الله تعالى في قلوب المحبين المقبلين.

انظر إلى حالك ترى ذلك الحال، **متى جالست الناس واختلط بهم وأكلت وشربت وتكلمت ثم قمت إلى الصلاة والعبادة؟! متى؟** لم يحدث، تقوم إلى الأكل، تقوم إلى الشرب، تقوم إلى المرأة، تقوم إلى أي شيء آخر ثم تقول غداً إن شاء الله سأحاول الرجوع إلى الله تعالى!!

فهذه الخلوة من علاماتها كمال الأنس بالله تعالى، كمال التنعم بالخلوة، كمال الاستيحاش – أن يستوحش من غيره- وإن خالط غيره فيخالطه للمعروف وللدعوة إلى الله ولتعلم العلم النافع وللقيام بالعمل الصالح، وما زاد عن ذلك مما لا قيمة له في الدنيا والآخرة لا يخالط أحداً عليه، وإن خالطه عليه خالطه ببدنه لا بقلبه، وقلبُه موصولٌ بربِّه، ولسانه متعلقٌ بذكره، ولكننا نعاني من ضعف تعلق اللسان والقلب بالذكر.

**فهلا فكَّر كلُّ أحدٍ فيما سمع من كلام ، فيحاول أن يأخذ بحظه من خلوته بالله تعالى؟** وهل عاهد كلُّ أحد نفسه وربَّه أن يفرغ ذلك الوقت، وأن يغتنم هدوءه، وأن يتحين دخول ليله حتى يخلو بربه وحتى يتفكر في أحواله وأن يتفكر في معاده وإقباله على ربه وسرعة الرحيل إلى الله جل وعلا؟ وأن يتفكر في الزاد الذي يتزوده، وماذا تزَود حتى يلقى الله تعالى وكيف يصلح ما هو عليه؟ إلى آخر هذه الأحوال الحسنة التي هي محل فتح الله تعالى على المؤمنين، هو الذي يأخذهم إليه، ويرفع شوقهم إليه، ويجعل أنسهم فيه ﷻ- ثم يعطيهم من فضله هذا الذكر وهذا الفكر وهذا العمل الذي يكونون به أحباءَ الله تعالى والمقربين عنده.

هلا فكر المرءُ في ذلك أو أنه ما زال بعيداً ؟ ليس هو الذي ما زال بعيداً ولكنه ما زال بعيداً بإبعاد الله له – مازال محروماً بحرمان الله إياه، مازال مطروداً لأن الله ﷻ لم يأخذه إليه، ولم يرشده إليه طريقاً !

**فليبدأ أهل الإيمان إذن هذا السير من الآن**، فإذا انشغلوا بذكر الله تعالى إذا بيومهم يومٌ جميل.. يومُ الذكر.. يوم الإقبال على الله.. يوم التعلق بالله تعالى، فإذا جاء ليلُهم إذا بهذا الذكرُ يحملهم على هذه الخلوة والمناجاة والاختلاء بالله - تبارك وتعالى - والانقطاع له، واستغلال واغتنام هدوء الليل، وصفاء الوقت، وإقبال القلب، في أن يَبُثَّه شكواه

وأن يدعوه بأن يبعد عنه نفسَه وشيطانه وهواه وأن يقيه تلك الآفات والمصائب والأخلاق الردئية التي تمنعه عن الله تعالى، وأن يهيئ له الحال الحسن وأن يعينه عليه وأن يوفقه له وأن يحفظه فيه ؛ لو صادفتَ ساعةً من ساعات الإجابة في هذا الليل إذا بالله تعالى يستجيب لك.. فُزْتَ فوزًا عظيمًا أيها المسكين وكان ذلك أُنْسُكَ بالله تعالى ﷻ.

## خامسًا : الحزن على فوت حظك من الله

الحالة التالية التي تبين محبتك لله تعالى، هي الحزن والأسف على فوات حظك من الله تعالى، لا تتحسن أحوالك أبدًا بعدما تتم المغفرة، إلا وقد حزنت حزنًا شديدًا وتأسفت على ما فاتك من ذكر الله تعالى وطاعته.

وهي من علامات المحبة التي لم يعد لها أثر في حياة المؤمنين اليوم، أن تجده في نهاية يومه ينظر إلى غفلته ويوازن بها ذكره، وينظر إلى طاعاته ويوازن بها تقصيره، وينظر إلى استعداده للقاء الله ويوازن بها بعده عنه، فإذا به يرى الكفة الراجحة للغفلة أو لعدم الطاعة، فيحزن الحزن الشديد على ما فاته من الله تعالى، وعلى ما فاته من ذكر الله تعالى.

والمرء - ولا حول ولا قوة إلا بالله- إن فاته الذكر ، فاته القرآن، فاته الصيام ، فاته القيام ، فاته العلم ، فاته العمل ، فاته الجهاد ، فاته الأمر بالمعروف ، فاته النهي عن المنكر ، فاتته مصالح المسلمين والقيام بها، فاتته تلك الحرارة التي يقوم بها لأعمال الدين لا يهمه، ولا يتأثر، ولا يحزن، **ولا يبكي على ما فاته من جنب الله تعالى**، وعلى النقيض فإن فاته شيء من الدنيا أو ضاع عليه شيءٌ من الدنيا انظر إلى حسرته وإلى شكواه وإلى تململه وإلى ما كان وما يكون، ولو ضاع ذلك من الآخرة لما وجدتَ له أثراً ولا حزناً ولا ضيقاً.

**هؤلاء الذين لم يبالوا بما مضى عليهم، لا يدل ذلك على محبتهم لله..**

فهم لا يتأسفون على ما فاتهم من الله تعالى كما يتأسفون على فوت حظهم من الدنيا ؟ أين محبتك لله تعالى ؟ أين إقبالك على الله تعالى ؟ أين تعظيمك لله تعالى ؟ أين تقديرك لله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [ نوح : ١٣ ].

لذلك كان من أعظم الأمور التي تبين هذا الحال الحسن الذي انتقل إليه المؤمنون المتقون أن تراهم حزانى في نهاية اليوم يبكون على ما قد فاتهم من ربهم؟! فدلَّ ذلك على حياة قلبوهم وتعلقهم بربِّهم وعلى قربهم منه وعلى خوفهم وخشيتهم، وعلى رجائهم في الله ﷻ .

إنهم إن وصلوا إلى تلك الحال فقد **بدءوا مرحلة جديدة من الطاعة ألا وهى ألا يستثقل المرء طاعته الله، ولا يملها، ولا يتضايق منها، ولا يتأفف من كثرتها**، بل قد ظهرت عليه آثار المحبة من التحمل وعدم الاستثقال، لأنه إن أحب شخصًا في الدنيا لم يستثقل أن يقوم له بكل شيء، وأن يجاهد في سبيله بكل شيء، وأن يعطيه كل شيء، مع تلذذه بذلك، ويحب أن يكون على خدمته، وأن يوفر له ماله، وأن يحمل عنه، وأن يسافر له، وأن يبذل المشقة الشديدة في تحصيل محبته... **فما بالك بالله عز وجل**.

هذه العلامة المفتقدة في أهل الإيمان وهي عدم استثقال الطاعة بل المحبة لها والانشراح بها وعدم محبة الخروج منها، بل يود أن يكون دائمًا في خدمة محبه سبحانه وتعالى، لا يخرج عنها، ولا يتأفف بها، ولا يستثقلها ولا يمل منها، إذا كان ذلك كذلك، فإنه كما ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن الله لا يمل حتى تملّوا**»[1].

---

(١) رواه البخاري (٤٣) كتاب الإيمان ، باب أحب الدين إلى الله عز وجل أدومه ، ومسلم (٧٨٥) كتاب صلاة المسافرين ، باب أمر من نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن أن يرقد .

والمؤمنون اليوم يستثقلون طاعة الله تعالى، يستثقل إلى أن يأتي إلى بيت الله لدرس العلم، يستثقل أن يأتي لتحصيل شيء يقربه إلى الله تعالى، ليحصل آيتين من كلام الله جل وعلا، ليحصل شيئًا يكون ثمن سعادته في الآخرة، يستثقل القيام، ويستثقل الصيام، ويستثقل الذكر وقراءة القرآن !

**وسبب تنزل رحمة الله تعالى عليه، أن الله تعالى قد مشى إليه** أو أتاه هرولة كما قال : «**عبدي قم إلي أمشي إليك**»، كما ذكرنا الحديث لله تعالى، «**ومن أتاني يمشي أتيته هرولة**» [1].فانظر هل تحب ربك فى استثقالك للطاعة، وخروجك بالأعذار منها، وأنك تود أن تخرج منها وأنها ثقيلة عليك سواء في صيام، في قيام، في ذكر، في بذل، في طاعة، في صدقة، في قيام بأعمال الإيمان، في قيام بمصالح المسلمين، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله، كل ذلك انظر إلى نفسك، **فإذا استثقلت هذه الطاعات وملت منها علمت أنك قد خرجت عن قيد المحبة إلى بغض الطاعة وإلى استثقالها وإلى عدم المحبة لها،** فانظر إلى حالك حينئذ مع الله، وانظر إلى قسوة قلبك حينئذ وجمود عينك وإلى غفلتك ونسيانك الرحيل والاستعداد وتجهيز الجهاز وإصلاح الذات في السير إلى الله تعالى.

**احزن لنفسك يوماً ما، كن حزيناً على ما فاتك من الله تعالى،** حاسبت نفسك فوجدتَ نفسك على هذا الحال فأحدث لك هذا الحزن وهيجك على البكاء، وأورث عندك محبةَ المجاهدة لتعوض ما فات، وأن تستدرك تلك الأحوال التي ضاعت عليك، وأن تبدأ فتقف لنفسك وشيطانك بالمرصاد، وقفة تبين أنك تحبُّ ربَّك، وتدافع عن تلك المحبة، وأنَّك تبذل وقتك وجهدك ونفسك لتحصيلها، وأنَّك تبكي عند فقدها، ليرى

(١) رواه البخاري (٧٥٣٦) كتاب التوحيد ، باب ذكر النبي ﷺ وروايته .

الله تعالى ذلك منك، فإذا به يخفف عنك أعباء المجاهدة، ويبعد عنك شيطانك، ويقلل لك كيده، ويدافع هو عنك كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [الحج:٣٩] يتولى هو الدفاع عنك ﷻ ويتولى الذود عنك، ويتولى حمايتك وحماك، فإذا بك في حمايته، وإذا بك في دفاعه ﷻ، وإذا بك في سلطان ربِّك لا سلطان لغيره عليك جلَّ وعلا، فيقوى بذلك قلبك، ويقوى بذلك بدنك، وإذا بك خلقاً جديد من المحبين المتقين.

## سادسًا : محبة المؤمنين والذلة لهم

العلامة التالية للمحبة، أن من محبة الله تعالى محبة المؤمنين، والرحمة بهم، والشفقة عليهم، فيكون رفيقًا شفيقًا بأهل الإيمان جميعًا، وأن يكون على العكس مع أعدائهم، شديدًا عليهم، كما قال: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [ الفتح : ٢٩ ]، فإنه لا يكون محبًّا لربه، إلا أن يكون محبًّا لخلقه المؤمنين، محبًّا لعبيده المتقين، كما قال: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [ المائدة : ٥٤ ] وذلك الحال هو الذي يفرق بين محبة الله وعدمها، أن يكون أذلة على المؤمنين، رحماء بينهم، أن تتحقق فيهم تلك الصفات من المحبة والمواصلة والسعي في مصالحهم وأن يكونوا مأتلفين متكاتفين، «المؤمن للمؤمن كالبنيان»[1] . كما ذكر النبي ﷺ يشد بعضه بعضًا، إلى آخر الأحاديث والآيات الواردة في هذا المعنى، فلن تكون محبًّا لربك إلا أن تتحقق محبتك للمؤمنين، وأكثر الناس محبة لله أشدهم محبة لإخوانه .

---

(١)رواه البخاري (٢٤٤٦)كتاب المظالم والغصب،باب نصر المظلوم،ومسلم (٢٥٨٥) كتاب البر والصلة والآداب،باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم.

علمت إذن أيها المؤمن التقي وصفة العلاج والرجوع إلى الله تعالى، فكان الذكر وقراءة القرآن والخلوة هي الأسباب التي تعيد هذا القلب إلى الربِّ، وإلى الوقوف ببابه، وإلى التعلق به ﷻ، فهل أخذت قسطاً من هذا الذكر والقرآن وتلك الخلوة بعد أن علمت تلك الموعظة فكان ذلك سبباً في إصلاح نفسك وقلبك وتهذيب سيرك إلى الله تعالى؟

أم أنَّك تسمع ولا تعقل، أم أنك تسمع ولا تعمل، أم أنَّك تزيد حجة الله عليك؟! أو إن عقلت شيئاً لم تعمل به، وإن قمتَ به لم توفه حقَّه. متى إذن توفى هذه الأمور حقها ؟ وهي نجاتك، وهي أنسك، وهي لذتك وهي نعيمك، وهي سرورك وهي كل شيء في دنياك وأخراك !

## المحبة هي الغاية القصوى في العلاقة بين العبد وربه

والأمر المهم التالي وهو الذي يختص بالعلاقة بين العبد وربه ، فهذه العلاقة هي أصل الدين، ويجب أن تكوت المحبة هي مَنْبَت هذه العلاقة بين الله تعالى وعبادة.

إنَّ محبة الله ﷻ هي التي يجب أنْ تَصُوغ هذه العلاقة بين العبد وبين ربه ﷻ، ولا بد أن تكون هذه **المحبة هي الدافعَ للمرء أن يعبد الله تعالى وأن يجتهد في عبادته** وأن يُقْبل عليه وأن يتعلَّق به وأن يُحسِن التوكلَ عليه والثقةَ فيه ﷻ وأن يأنَس به ويشتاق إليه وأن يُكثر ذِكرَه وأن يقوم له ليلَه وأن يَخْلوَ به ﷻ؛ ليكون له حظٌّ من الله جل وعلا، وهذا الحظ الذي نتكلم عليه لا يرتبط بزمان ولا بمكان.

فإن كانت العلاقة على هذا الحال فذلك دليل المحبة، **وإلا فينبغي أن يصححوا هذه العلاقة بالله** ﷻ ويأخذوا في تجديد العهد مع الله تعالى؛ ليحصلوا هذا النعيم في الدنيا؛ لأنَّ من لم يحصله في الدنيا لا يحصله في الآخرة كما قال الله جل وعلا ﴿ **إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى**

نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣] أي في الدنيا والآخرة، وتنعمهم بالله تعالى في الدنيا دليل تنعمهم بذلك في الآخرة، ودليل النظر إلى وجهه الكريم والشوق إلى لقائه، وإلى برد العيش بعد الموت كما ذكر النبي ﷺ.

**على غير هذه العلاقة لا تصلح أحوال المرء**، بأن يكون على النحوِ السيء في علاقته بالله، فيغلب عليه الغفلة، ويغلب عليه عدم الشوق للقاء الله، ولا حتى محبة الشوق لهذا اللقاء، وكذلك يغلب عليه الانغماس في الدنيا ونسيان الآخرة وعدم الاستعداد للقاء الله جل وعلا وقلة العبادة والاجتهاد والذكر حين يختلط المرء بالدنيا وأشغالها وشهواتها ومأكلها وشربها ونكاحها ومشاكلها وما فيها، فيفقد حلاوة الإيمان وطعم الطاعة وتراه يشكو حاله المُر الذي وصل إليه، **علاقة "المحبة" تُصحِّح ذلك كله**.

إن قضية سلوك طريق المحبة من أخطر القضايا، **لأنها قضية الثبات على الدين، فمن لا يحبُّ ربَّه ، لا يثبت على طريقه، من** لا يحبُّ ربَّه المحبة الكافية يقع في المعاصي والزلل، من لا يحبُّ ربه المحبة الكافية يقع في الغفلة وعدم الاستعداد للآخرة، من لا يحبُّ ربَّه لا يشتاق إليه، كيف يشتاق إليه وهو لا يحبه؟ لا يحب ربَّه لا يحبُّ لقاءه، أمَّا إن أحبَّ لقاء ربِّه أحبَّ اللهُ لقاءه؛ فإذا قال القائل: ما هي مراحل هذا الطريق؟ نقول:

**١. استشعار لذة محبة الله تعالى**

فهذا أول الطريق، **فإذا كان المرء لا يدري طريق المحبة ولا آثار المحبة فمن أين يفكر فيها؟! ومن أين يعمل لها؟** وهذه الدرجة من أعظم درجات الدين، بل هي أعظمها إن حصَّل هذه المحبة – كما ذكر الله تعالى – فلم يبق له شيء، لأن المحبين هم – كما هي شريعة النبي ﷺ –هم أهل الله تبارك وتعالى وخواصه في جنَّته، وأصحاب الدرجات

العلى والنعيم المقيم مع الله جل وعلا والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، هؤلاء مع هذا الرفيق الأعلى، مع الله جل وعلا.

**إذن فالمؤمنون مطالبون اليوم كيف يُحسُّون بهذه المحبة فتتقدم على جميع المحاب، ويصغر في جوارها كل ما يفكرون فيه من محبة**؛ لأنَّ مصيبتهم التي يعانون منها أنَّهم عندما ينشغلون بشيء من الدنيا أو بشيء من الآخرة لا يوصل الوصول الكافي إلى الله جل وعلا إذا بهذا الشيء يستغرق وقته وقلبه وجهده ، ولا يدري أن هذا الشيء شيء حقير وشيء زائل وشيء فانٍ ، وأنه لا تقارن أبداً لذة محبة الله تعالى بهذه الفانيات، فإنه لو استشعر شيئاً من لذة المحبة وكمال تنعمه بربه ﷻ والأنس به، والخلوة في مناجاته، ﷻ لا يقدم عليها شيئاً آخر.

**والمرء يضعف في طريق الله لأنَّه قدَّم على الله تعالى نفسه وهواه ودنياه وشهواته وملذاته، وسوَّف التوبة والرجوع إلى الله تعالى**، وظنَّ أنه غداً أو بعد غد سيرجع إلى الله وسيحاول وسيبدأ من جديد وسيفتح صفحة حسنة مع الله تعالى، وكأن الطريق إلى الله تعالى ينتظره ليدخله، وإن شاء الله ستتحسن الظروف وتتهيأ الأحوال، وإن شاء الله .. وإن شاء الله .. وهذه الأماني التي نعيش فيها فهي التي تسوِّد القلبَ وتضعفه عن مقاومة هذه الأمراض، وتُضْعِفُ بالتالي آثار المحبة لله تعالى.

المؤمنون إذن مطالبون بأن يحسُّوا بهذه القضية الخطرة التي **هي جوهرُ الدِّين في أنَّه لو أحبَّ ربَّه انطلق لعبادته**، فانشغل بذكره، وقام بكل مهمةٍ يأمره بها، وبذل له نفسه وروحه وماله وبدنه.

**لو استشعر المؤمنون حال المحبة لربِّهم وكيف يكونون عليها، فإنه ستصغر بجوار هذه المحبة بقية المحاب**، يعني سيجدون بقية أمور الدنيا التي يتنافسون فيها ويضيِّعون فيها أوقاتهم أو ينشغلون بها عن ربِّهم سيجدونه شيئاً زائلاً، شيئاً فانياً، فلا يبقى لهم لذة التنعم وقُرَّة العين وطمأنينة النفس في غير هذه المحبة لله تعالى، لذلك لَمَّا لم يحسُّوا بهذه المعاني وجدتهم لا يسارعون إليها من ناحية ولا يحزنون على فقدها، ومن الناحية الأخرى لا يقومون بما ينبغي القيام به من آثار هذه المحبة حتى يصلوا إليها.

**٢. نبذ محبة الدنيا لأنها سبب التأخر عن محبة الله**

كلُّ أحدٍ يدعي أنَّه يحبُّ ربَّه ويحبُّ نبيه ﷺ ويحبُّ دينه ، وقد جاء الامتحان ليعرف كلُّ مدى ما هو عليه من محبة الله أو ما هو عليه من محبة الدنيا، لأنَّ محبة الدنيا والآخرة لا يجتمعان في القلب، فإن دخلتْ محبةُ الدنيا القلبَ خرجتْ منه محبةِ الآخرة بقدرها، وإن خرجت محبةُ الآخرة من القلب دلَّ ذلك على قِلة محبة الله تعالى، وعلى قلَّة الشوق للقائه ﷻ.

أين المحبون لربهم؟ الله جل وعلا يقول في هذه الآية ﴿ **فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ** ﴾ [المائدة:٥٤] – وكما يقول ابن القيم وغيره – ادعى قوم المحبة فجاءهم الامتحان بهذه الآية وفيها هذه الأوصاف الأربعة ولها معانٍ كثيرة مندرجة تحت هذه الأوصاف، تبين ما هم عليه من الدرجات العالية؛ لأنَّه لَمَّا ذكر أنه ﷻ سوف يأتي بالذين يحبهم ﷻ دلَّ على أنه سيأتي بأعظمِ النَّاس، وأفضلِ النَّاس، وأكملِ النَّاس، وأعلى النَّاس، وأجلِّ النَّاس، وأحب النَّاس إليه ﷻ، وبالتالي تكون هذه الأوصاف التي وصفهم بها إنما

هي أعظم الأوصاف التي يستحق البشرُ بها أن يحبَّهم ربُّهم ﷻ، وأن يصطفيهم جلَّ وعلا، وأن يدخلهم حظيرة قدسه، وأن يوقفهم على باب أنسه والتنعم بذكره ﷻ.

لو نظرنا إلى أصحاب النبي ﷺ لرأينا هذا الحال التي تبينه تلك المحبة، ما الذي حملهم على أنَّهم بمجرد أن أسلموا لله جلَّ وعلا على أن يكونوا أذلة على المؤمنين بعد أن كانوا فرقاء يقتلون أبناءَهم وإخوانهم؟

ثم أنهم لم يقصروا في جهادهم في سبيل الله، فهم بذلوا المال والنفس وتركوا الولد والأهل والوطن لله تعالى، لم يحملهم خوفٌ أيامها على شيءٍ، **لم يحملهم على ما قدموا إلا أنَّهم قد أحبُّو ربَّهم، وقد امتلأت قلوبهم بالإيمان فلم يرجعوا عنه، وأنَّ تلك المحبة قدمتْ كلَّ ما يحبُّ ربهم ﷻ في قلوبهم على كلِّ محبة**، فإن تعارضت محبة الله تعالى عندهم مع محبة الولد تركوا محبة الولد ببساطة لمحبة الله تعالى، تركوا محبة الأهل والوطن كذلك، محبة المال كذلك، حتى النفس التي لا أغلى منها ولا أثمن منها بذلوها رخيصة لله تعالى، جادوا بهذه النفس لتلك المحبة، ضريبة لها، يرجون من الله تعالى أن يقبلَهم فيها، وأن يتقبل منهم ذلك في صحائفهم، وأن يكون ذلك في ميزانهم يوم يبعثون، فلا يخافون في الله لومة لائم.

**فهذه بعض تلك الأوصاف التي ذكرهم بها**، وينبغي أن ينظر فيها المرء، **لماذا تأخر عن محبة الله ؟!** لأنه قدَّم غير محبة الله على محبته ﷻ ؛ تُراه لو قدَّم هذه المحبة لله تعالى وملأ بها قلبَّه وروحه تُراه يُقصِّر في ضريبة هذه المحبة، **لو هذه المحبة حملته على أن يدفع نفسه.. دفعها، حملته على أن يدفع ماله ... دفعه**، أن يترك أهله ووطنه.. تركهما، أن يقوم

ليله.. قامه، أن يذكر محبوبه لا يفتر عن ذكره، وهكذا رأيت **هذه المحبة هي المحرك الأعظم الذي يحرك الناس إلى القيام بأعمال الدين وأشغال الإيمان.**

**وفي نفس الوقت فهذه المحبة هي السبب في أن يتحملوا المشقة والألم،** فإنَّ المحبَّ يتحمل المشقة في سبيل محبوبه، حتى في هذه الدنيا، أن يطلب منه كذا وكذا فيقوم له بهذا الأمر محبةً له، ولو كلَّفه مشقةً في نفسه وماله وبدنه ووقته وجهده، ويقوم به وهو مسرور النفس، وهو قرير العين ، لا يتململ من هذه المحبة ولا يستثقل ما يدفعه فيها ، وإنَّما يقوم عليها، ويقوم بها وهو نشط محبٌّ ومقبلٌ حتى يُرضى عنه حبيبه، وحتى يُحبَّه المحبة التي تكون سبباً لشغله عن أشغاله وأعماله بشغل محبه وأعماله وطاعاته.

وهذا هو الحال، تُرى الناس يقدمون الدنيا والمال والأهل والولد والراحة والدعة والنوم والسكون، والشهوات والأكل والشرب والمنكح والمشرب، كل ذلك لِمَ يقدمه إذا تعارض مع محبة الله تعالى؟! **لأنَّه يحبُّ ربَّه أو لأنَّ الشهواتِ والنفسَ والهوى والدنيا هي المقدمة عنده على تلك المحاب!**

إذن فادِّعاء هذه المحبَّة لابد أن نرجع منه **مرة أخرى إلى تلك الآثار التي ينبغي على المؤمنين أن يستشعروها ؛ أن يستشعر المرءُ أنَّه يُحبُّ ربَّه ﷻ لا يفرط في هذا الحبِّ، وأنَّ هذا** الحبَّ لربِّه يزداد في قلبه ولا يقلُّ، وأن هذا الحب لا يفترُ في قلبه وبدنه، بل إن فتر بدنه من شدة القيام بأعباء المحبة لا يفتر قلبه أبداً، وتراه حينئذ لا يبالي بما يترك وما يأتي بسبب هذه المحبة، ولا يستثقلُ شيئاً على هذه المحبة، بل يأتي كلَّ ذلك من أعمال المحبَّة وأعمال الطاعة بغير ملل، وذهبت عنه متاعب الأعمال ومثاقل الطاعات بسبب تلك المحبة.

وكان ذلك حال النبي ﷺ وأصحابه، إذا بهم يخرجون من جهادٍ إلى جهاد، من مشقة وتعذيب وترك للوطن إلى هجرة إلى جهاد إلى جهاد إلى عبادة إلى ذكر إلى صلاة إلى دعوة، إلى خروج إلى جهاد، لم يكن حالهم إلا منشغلاً بذلك كله، وكل ذلك إذا رأيته لم تر فيه بقية شيء لأعمال المرء، يعني لم ترَ فيه إلا دليل محبة الله تعالى، أي أنَّك لَم ترهم يخرجون من دنيا إلى دنيا، ومن شهوات إلى شهوات، لَم يخرجوا من أعمال التوسع فيها إلى أعمال أخرى، لا ، لم ترهم كذلك، لَمْ ترهم يتبعون الشهوات شهوة شهوة حتى يحصِّلوها، وأنَّهم **يودُّون أن يحصِّلوا كلَّ الشهوات قبل أن يموتوا** وقبل أن ينتقلوا إلى الله تعالى، وأن يحصلوا كذا وكذا، لا. وإنَّما كان كل همِّ الواحد منهم أن يُحَصِّلَ محبةَ الله، وأن يقوم بما يرضي الله وبما يرضى الله تبارك وتعالى عنه، وبما يرفع به درجته وبما يكون به هو السابق إلى الله تعالى والأحبّ عند الله تعالى، والأعلى عند الله تعالى قدراً ومنزلاً.

لو رأيتَ حالهم إذن لَمْ تر ذلك الحال الذي نتسابق نحن فيه ونتسارع إليه، وإنَّما كان حالُهم كما أمر الله تعالى ﴿ **وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

**فلم يكن لهم مسارعةٌ ولا مسابقةٌ إلا إلى تلك المغفرة والجنَّة التي أمر الله تعالى بها، حتى إن كانوا في أشغال الدنيا ومع** أهلهم وأولادهم فلم يكن لهم حبٌّ إلا حب الله تعالى، وأنَّ حبَّ الله تعالى مقدَّم على ذلك، وإن كانوا في أعمالهم وأشغالهم فإنَّما تلك الأعمال والأشغال إنَّما هي مقربة لهم إلى الله وإلى محبته، فإن أبعدتهم عن محبة الله تعالى تركوها ولم ينظروا إليها ولم يلتفتوا لها أبداً ، وإنَّما ركلوها بأرجلهم لأنها معطلةٌ لهم عن ربِّهم.

انظر إلينا في تسويف ذلك وفي تأخيره وفي إخراج هذه المعاني الحسنة من القلب، وقف الشيطان والنفس والهوى والشهوات والشبهات لأهل الإيمان في تلك الأيام حتى أضعفت تلك المحبة وبالتالي قدموا شهواتهم، وقدموا حظوظ أنفسهم، وقدموا دنياهم، وقدموا أموالهم وأولادهم ونساءهم، وقدموا ما يقومون به من شهوات الدنيا، كلّ ذلك قدموه على محبة الله تعالى، فأين محبَّة الله تعالى إذن التي تملأ جوانَحهم وتملأ قلوبَهم فتراها في أعمالهم وتراها في أحوالهم؟!

**٣. الدوام على الطاعة والنشاط في القيام بها**

وهي كذلك من آثار المحبة، بأن يكون دائم العمل، مجاهداً للنفس، قائماً بالطاعة لا يفتر.

وكان ذلك حال النبي ﷺ ، وحال الصحابة المكرمين، **لم تكن لتجد واحداً منهم فارغاً من عمل من أعمال الدنيا والآخرة**، وإن كان في أعمال الدنيا لم يكن فارغاً من ذكر الله تعالى والإقبال عليه، ولم تجده فارغاً من النية الحسنة التي تحوِّل هذه الأعمال من أعمال الدنيا إلى قربة من قربات الآخرة، وكانوا يكرهون الرجل إذا كان على غير ذلك، فهو مشغول في صلاة، في ذكر، في قراءة للقرآن، في قيام، في علم، في عمل، في بذل، في نصح، في توجيه، في إرشاد، في قيام بأحواله ومعاشه ومعاده، كما قال تعالى في وصفهم: ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ**﴾ [الفتح: ٢٩]، فهذا الحال هي ما يَصبُوا إليه المحبون اليوم لكي تصلح أحوالهم، ولكي تستقيم قلوبهم وتقوى أفئدتهم على محبة الله تعالى فيَصلُح سيرهم إلى الله.

والمحب في المقابل مع دوام الطاعة، **ففي دوام الطاعة ألا يستثقلها** وأن يكثر منها، وأن يذهب عنه تعبها، وقد صار الصحابة المكرمون إلى هذا الحال، أنَّهم قد ذهب عنهم تعب الطاعة لأن حالهم قد أنقلب من أنهم يجدون المشقة في الطاعة إلى أنَّهم يجدون فيها اللذة والنعيم، وهو الحال الذي لا نريد ولا نود أن نصل إليه.

**فكل أحد يشكو أنه في قيامه مشقة، وفي ركوعه مشقة وفي سجوده مشقة**، وأنَّه لا يستطيع ولا يفعل، ولم يحاول أبداً أن تكون الصلاة قرة عينه ونعيم قلبه وسرور بدنه، وأن تكون راحته فيها، وأن تكون محبته بها، فهو لا يريد ذلك، وإنَّما **كل همِّه وشكواه أنَّ الصلاة طويلة !** فمتى يذكر الله تعالى؟ وكيف يقرأ هذه الكمية من القرآن الكريم؟ وكيف يبذل هذا المال؟ وكيف يقطع هذا الطريق الطويل ليصل إلى مقصوده من القيام بمصلحة من مصالح المسلمين؟ ولا يستطيع أن يأتي درس العلم، ولا يستطيع أن يقوم بكذا وكذا، وكأنَّها أعباء ومشاق يود أن يتخفف منها وأن يتقلل منها وينتهي منها.

**فكيف تتغير الآية في حقه لتكون صلاته أو ما يراه المشقة هو النعيم بذاته؟** وأن يذهب عنه تعب الطاعة الذي يظن، إن تعب الطاعة الذي يظنُّ هو النعيم والنور، هذه الوقفة التي تقفها في الدنيا تخفف عنك وقفة الآخرة، هذه الأعضاء التي تتعب في الدنيا من طول القيام والركوع والسجود، هي التي تنير لك طريقك على الصراط إلى الله تعالى، هي النور الذي تراه مذخوراً لك ومدَّخراً لك عند الله جلَّ وعلا، **فكيف تحقق هذا الحال الحسن بأن تكون كل هذه المشاق التي تدعي وكل هذه المتاعب التي تظن إنَّما هي لذتك ونعيمك.**

**المحبون يذهب عنهم أثر هذه المتاعب**، لا يجدون للعبادة تعباً كما كان حال النبي ﷺ ، تُراه لمَّا وقف ﷺ في قيامه حتى تورمت قدماه من طول القيام، تراه كان ﷺ يشكو ويتململ وكذا وكذا؟! أم أنَّه لما قيل له لماذا تفعل ذلك يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً ؟! لأنَّه محبٌّ ولا يحسُّ بهذا الألم الذي يدَّعونه له، ولا يرى أثر هذه المشقة، بل هي تنعمه، بل هي لذته، بل هي سروره أن يقف بين يدي ربه.

والمحبُّون في الدنيا كذلك ، المحبون في الدنيا لا يشعرون بوقوفهم مع محبوبهم ولا بطول هذا الوقوف ولا بالمشي ولا بالبذل ولا بشيء من ذلك مع بشر زائل مثلهم، فما بالك بذلك مع الله تعالى!

**لابد للمؤمنين إذن أن يغيروا هذا الحال وهذا الفكر في عقولهم وفي أعمالهم**، وما لم يغيروا ذلك أو ما لم يَودُّوا أن يغيروا ذلك وما لم يحالوا أن يغيروا ذلك سيظلون على هذا الحال من الشكوى من العبادة، إنهم إن لم يُسرُّوا بالطاعة فبأيِّ شيء يسرون في الدنيا؟ وإذا لم يتنعموا بها فبأي شيء يتنعمون في الدنيا؟!

يقول بعض السلف: "كابدت الصلاة عشرين سنة وتنعمت بها عشرين سنة" يعني جاهد نفسَه على الصلاة والمحبة والخشوع والإقبال على الله تعالى، كابدها عشرين سنة يحاول أن يأخذ بنفسه عليها، ثم بعد ذلك صارت نعيمه بقية عمره، فعندما يقول: "الله أكبر" فإنه دخل ليتنعم، فالصلاة هي نعيمه وسروره، وراحته ومحبته.

**٤. يحبهم سبحانه أولا، فيضع محبته في قلوبهم**

إن المحبة هي الغاية القُصوى **والمقام الأعلى في دين الله تعالى،** وإن كل مقام بعدها إنما هو ثمرةٌ من ثِمارها وأثَرٌ من آثارها ونتيجةٌ من نتائجها، كالشوق والأنس والرضا، فإذا وصل المرء إلى محبة ربه أَنِسَ به واشتاق إليه وصار كلُّ أمر في أوامره تحت الرضا وتحت الأنس والشوق، وكما ذكرنا: لم يُحِس بذلك وإنما هو يسير في الشُّكْر ويسير في بقية الأعمال التي ترفعه إلى الله.

وكل مقام قبل المحبة إنما هو كالمقدِّمة لها، حتى يَصِلها المرءُ وحتى يتحقق بها، كالزهد والصبر والتوبة والمحاسبة ... وغير ذلك من المقامات التي تتقدم المحبة، حتى إن حصَّلها المرءُ بعد ذلك حَصَّل **"المحبةَ"** لله تعالى.

**وهذه هي النقطة المهمة في سير العبد في طريق ربه ﷻ**، لماذا لا يسير المرء إلى الله .. لماذا لا يحبه .. لماذا لا يتعلق به .. لماذا لا يتحقق بهذه المقامات التي نتكلم عليها؟؟ كل ذلك لا يتم له لأنه **لم تتم له محبة الله بعد**، فإنه لو أحبه ربُّه كما قال: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ**﴾ أولًا ثم ﴿**وَيُحِبُّونَهُۥٓ**﴾ يعني: لَم تتقدم محبةُ الله تعالى، فإذا أحبه ربُّه فإن العبد لا يَنفك أبدًا عن محبة الله تعالى، وإذا لم يحبه أو كانت المحبة قاصرةً دلَّ ذلك على أن العبد لم يستحق من الله تعالى هذا الحال ولا هذا المقام حتى يضعه ربُّه فيه، بل هو يستحق أقلَّ من ذلك **لأن بذله وجهده وإقباله وحنينه لله جل وعلا لا يصل إلى أن يحبه ربُّه**، فإن أحبه مولاه ﷻ فإنه يأخذه إليه ويضع المحبةَ في قلبه لربه ﷻ فتظهر عليه آثارها.

وهذه هي المشكلة التي يعاني منها أهل الإيمان، فلا بد أن تَسبِقُ محبةُ الله تعالى محبةَ العبد، فإذا أحب الربُّ جل وعلا عبدَه إذا بعبده يُحبه ويُقبل عليه، وإذا بآثار هذه

المحبة تَظهر عليه، وذلك كما ذكرنا في التوبة والتزكية: ﴿تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا﴾ (التوبة: ١١٨)، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ (النور: ٢١)، فإنه يُزكِّيهم فيَتزَكَّوْا لله تعالى، وكذلك في المحبة يحبهم فيصيروا إلى تلك المحبة التي وَضَع لهم عَلَمَها فشمَّروا إليها.

هذا إذًا هو المَحَكُّ والمعيار الذي ينبغي أن يَقِيس المرءُ به محبتَه لربه، هؤلاء الكُسالى الذين علموا أن الله تعالى لم يُعطهم من محبته ذلك النصيب الأوفى الذي يأخذهم به إليه يُطَهِّر به قلوبَهم ويزكِّي به أفئدتَهم ويُطهِّر أبدانَهم ويعينهم في السير إليه ويوفقهم لطاعته ويَحميهم من الآفات والمهلِكات وقاطعاتِ الطريق إليه ﷻ، **ثم هم لا يُبالون ولا يهتمون ولا يَتأثرون بشيء من ذلك ولا يعطونه شيئًا من الاهتمام كأنَّ الكلام ليس إليهم وكأن الحساب ليس عليهم !**

**والنقطة الثانية : هي أن المحبة مُتفاضِلة** كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ (البقرة: ١٦٥)، يعني: هناك من يُحِبُّ وهناك من هو أشدُّ محبةً منه، فالمحبة واجبةٌ والمحبة متفاضِلة، وهذا التَّفاضُل يبين لنا أن المحبين درجاتٌ عند الله تعالى، على حسب محبة الله تعالى لهم؛ أحبَّ ذلك أكثر من ذلك ارتفع حالُه، وارتفع مقامُه عند الله وعَلَتْ درجتُه، وظَهر عليه الإقبالُ وظهر عليه العِلْمُ النافع والعملُ الصالح، وظهرت عليه المسارعةُ إلى الآخرة والاستعدادُ للرحيل وظهر عليه الشوقُ إلى ربه، والحنينُ إليه، وظهر عليه كذلك الزهدُ في الدنيا والإقبالُ على الآخرة .. ظهر عليه محبةُ الطاعة والمسارعة إليها .. ظهر عليه كراهةُ المعصية والنُّفْرة منها .. ظهر عليه الاشتغالُ الدائم بالذِّكر والقيام .. ظهر عليه السعيُ في مصالحه والسعي في مصالح المسلمين .. ظهر عليه بذلُه

مالَه ونفسه وجهده لله تعالى كما ذكر في المؤمنين المتقين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ...﴾ (التوبة: ١١١).

وهذا التفاضل أيضًا يدفع المؤمنين للمنافسة كما ذكر الله جل وعلا : ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٣)، وقد ذكر في هذه الآية شيئًا من صفاتهم حيث قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٤-١٣٦).

**والنقطة الثالثة : كيف يستجلب العبدُ هذه المحبة :** لماذا يحب المرءُ ربَّه ﷻ ؟ فإنْ رأى أن ربَّه يستحق المحبةَ كان ذلك حاثًّا له ودافعًا له إلى أن يَسلُك سبيلها وإلى أن **يبذل لها ماله ونفسه، فإن تَلِفت نفسُه ليحصِّل محبةَ الله تعالى فاز فوزًا عظيمًا**، فإن المؤمنين المتقين من أصحاب النبي ﷺ بذلوا أنفسهم لله تعالى، بذلوا هذه الأموال والأنفس والأولاد والديار والنساء والأوطان ... كل ذلك قد بُذِل لله تعالى، لماذا؟ لأن الله تعالى هو الذي قال ذلك فيهم: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ (المائدة: ٥٤)، هذا **هو فضل الله تعالى الذي يؤتيه من يشاء** من محبةٍ ومن آثارِ تلك المحبة، و(يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ) يعني: مَن شاء اللهُ له هذا المقام الأعلى وتلك الرُّتبة السَّنِيَّة، فإن الله يوفِّقه لها ويعطيه إياها ويهب له ﷻ من رحمته المزيد.

## الخـــوف

فإذا كان المتقون تحملهم المحبة في كل أوقاتهم على العبادة والإقبال والمناجاة والذكر، وعلى تحمل المشاق والأذى؛ لأنهم يحبون ربهم، ومهما بذلوا في سبيل محبوبهم ﷻ اعتبروه قليلًا في جنب ما أعطاهم، وفي جنب ما سيعطيهم ﷻ من المغفرة والرحمة والفردوس الأعلى ومجاورته في جنته ﷻ، فإن المقابل لذلك هو الخوف.

فإذا كانت المحبةُ تحملهم في كل أحوالهم، في رمضان وشعبان وشوال، أن يكونوا عاملين لله تعالى، ساعين إليه لا يفترون عنه، فإن **الخوف يمنعهم ويدفعهم عن مخالفة الرب وعن التكاسل وعن اتباع الشهوات**، ويدفعهم في نفس الوقت إلى القيام بأوامره واتباع تعاليمه لا يفترون عنه؛ **لأن الخوف يولد عندهم الحزن**.

انظر إلى هذا الحال.. تُراهم لو خرجوا حزانى خائفين بعد رمضان من أنهم لم يُتقبل منهم أو أنهم بعد رمضان على هذا الحال السيئ الذي خرجوا به والحال الذي هم فيه يزدادوا سوءًا.. تُراهم لو قُبضوا على هذا الحال ماذا يكون موقفهم ؟ تراهم لو خُتم لهم بهذه الحالة التي هم عليها كيف تكون شناعتهم عند الله تبارك وتعالى؟ وبأي وجهٍ يرون صحائفهم ويقفون عند موازينهم التي تزن أعمالهم أو أن ينتظروا أخذ صحفهم عند الله؟ ناهيك عن المرور على الصراط وأهواله.

**تُراهم لو خرجوا وقد علموا أن الله قد ردّ أعمالهم ولم يقبلهم**، وأن الله جل وعلا حجبهم عنه، وأن الله ﷻ لم يَرْتَضِهم بعبادته وبمحبته وبالوقوف بين يديه.. تُراهم لا يبكون ولا يتأثرون.. تُراهم يلعبون ويضحكون ويأكلون ويشربون ؟!!

فهل وصلنا إلى أيَّة درجة من درجات الخوف المعلومة؟

**أن يخاف المرءُ أن يُقبض على ما هو عليه.. أو أن يخاف أن يُقْفَل في وجهه بابُ التوبة.. أو أن يخاف أن يُرد عملُه.. أو أن يخاف عذاب الله تعالى وهَوْلَه.. أو أن يخاف فضيحة الموقف يوم يقوم الناس لرب العالمين.. أو أن يخاف البُعد والطَّرْد عن بابه**... فأيُّ خوفٍ من هذه الأنواع قد تَسَلَّط على قلبك؟ وأي خوف من هذه الأنواع قد حملك أيها المسكين إلى أن تكون بعد رمضان حزينًا باكيًا ومتألمًا ؟

فإن علمتَ أنك قد خرجت لا حَظَّ لك.. لا مغفرة لك.. لا رحمة بك مما يُرحم به الرحماء أو مما يُغفر لهؤلاء المغفورين لهم، ثم لا تبكي ولا تتأثر!

فأين **خوفُك** من ربك..؟

أين **خوفك** من الموت..؟

أين **خوفك** من القبر..؟

أين **خوفك** من الحساب..؟

أين **خوفك** من أن تُؤخذ بغتةً..؟

أين **خوفك** من أن يُحال بينك وبين حُسن الخاتمة أو أن يختم لك بسوء الخاتمة على المعصية أو على غيرها – أعاذنا الله جل وعلا؟

مَن الذي يضمن لنفسه إذًا أن يبقى حتى يصبح أو أن يبقى حتى يفتح عليه؟!

لو قيل لك في الدنيا ستُسْجَن وتُعذب وستُدفن في قبرٍ أو غير ذلك لكان خوفُك شديدًا، ولَظَهرت عليك الصُّفرة، ولَاصْطَكَّتْ أسنانُك، ولحدث لك ما تعلم مما يحدث

في مثل هذه المواقف!! فما بالك بما عند الله - جل وعلا - الذي زَلْزل الناسَ بهذا الكلام: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦].

**فالخوفُ إذًا جزءٌ مهم أن يسيطر على المرء اليوم**، فيسيطر على قلبه وتصرفاته: أنه قد حُرم، وأنه قد أُبْعِد، وأنه لم يُغفر له، وأنه يوشك أن يُؤخَذ، وأنه يوشك أن يموت، وأنه يمكن أن يُختم له على هذه الأحوال... فليبادر إذًا بالتوبة والاستغفار واستدراك ما فات، فلعل هذا البكاء وهذا الخوف إن رآه ربُّه ﷻ عليه ورآه صادقًا فيه أن يفتح عليه بسببه ويغفر له ويوفقه.

تُرى الأنبياء والصالحين كانوا أعقل وأفهم أم نحن وأمثالنا اليوم أعقل وأفهم؟ لا شك أنهم كانوا هم أعقل وأفهم بفارق ضخم، وهذا العقل والفهم كان يحملهم على البكاء. **ما الذي كان يدعو النبي ﷺ إلى البكاء؟** كان يصلي بليله ويسمع لجوفه أَزِيزٌ كأزيز المِرْجَل من شدة البكاء[1] ﷺ.

ما الذي كان يحمله على ذلك – صلوات الله وسلامه عليه؟ وما الذي حملنا نحن اليوم على العكس، على الأكل والشرب والشهوات والنكاح والتعالي والتكبر والمصائب السوداء والآفات العَجْماء التي نراها اليوم؟

**وقد يقول المرء: لقد صار القلب إلى هذه القسوة التي لا يخاف منها!**

فضَعْ نفسك اليوم أنك ستموت وتنتهي، وحاسِب نفسك وخِفْ، واقرأ سِيَر الصالحين الخائفين ابتداءً من الأنبياء والصحابة وغيرهم وانظر إلى خوفهم وما كانوا عليه، وبذلك تَسْتجلب شيئًا من الخوف لقلبك يحملك على المبادرة والمسارعة من ناحية،

[1] رواه النسائي في الصغرى (١١٩٨) وأحمد (١٥٩٧٢).

ومن ناحية أخرى يحملك على الكف عن الغفلة والمعاصي والمكروهات وعلى عدم تضييع وقتك فيما لا يعود عليك بخير في الأولى والآخرة.

الخائف يبدو عليه ذلك، فكل همه أن ينجو من هذا الخوف الذي هو فيه، كل همه أن يرتفع عنه هذا الخوف ليجري إلى منطقة الأمان التي يريد أن يكون فيها آمنًا ، والله تعالى لا يجمع على عبده خوفين ولا أمنين، فمن خافه في الدنيا أَمِنَهُ يوم القيامة[1]، يوم الفزع، كما يقول ﷻ: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] ، ومَن أَمِنَهُ في الدنيا خاف يوم القيامة، وهو الخوف الذي لا يُقَادِرُ قَدْرَه إلا الله ﷻ.

لذلك؛ المؤمنون مطالبون أن يُظهروا هذا الحال أيضًا لربهم وأن يداوموا عليه مع محبتهم لله تعالى، فإن **النبي ﷺ وأصحابه كانوا أشد الناس محبةً لله وكانوا في نفس الوقت أشد الناس خوفًا لله جل وعلا** وخوفًا من عذابه، كما يقول النبي ﷺ: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ معصيةً واحدة! ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الزمر: ١٣].



فلعلكَ إن أردتَ أن تصلح ما أنت فيه، فهذه هي "الروشتة" التي لا ينبغي أن يقصِّر فيها المؤمنون المتقون، فعلاقة المرء بالله، وعلامات المحبة وآثارها ، ينبغي أن تكون هي محل اهتمام المتقين بعد رمضان؛ ليزنوا إيمانهم، وليظهروا حال المحبة لربِّهم ﷻ ، ولا ينبغي أن يأخذوا هذه القضية كما أخذوا أشياء كثيرة من قبل، فيعلمون أسباب نجاتهم

[1] رواه ابن حبان في صحيحه (٦٤٦) بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

من هنا، ثم يتركونها ويذهبون إلى الدنيا والأهل والأولاد، وإذا قيل لهم عن شيء يقرِّبهم إلى ربهم.. حَسَبوا وقتهم ومالهم وجهدهم، وكأنَّ الوقت والجهد والمالَ مِلْكٌ لهم خاص، وكأن الله تعالى لم يُعْطِهم هذه النعم وأَمَرَهم بأن يبذلوها له، وإن بذلوا زادهم وبارك لهم فيه وأعطاهم أحسنَ وأفضل منه.. يبخلون على الله تعالى بما أعطى من وقت وصحة وجهد ومال، ويَسْتَثْقِلون ذلك على أن يَنجُوا بأنفسهم وأن يكون ذلك سببَ رحمتهم وسبب مغفرتهم عند الله تعالى !!

وإذا قيل لهم: اجلسوا وتفكروا لتستعيدوا هذه المعاني ولتتحققوا بشيء منها، إذا بهم لا يزالون يقدِّمون الدنيا وشهواتها على نجاتهم وعلى آخرتهم وعلى محبتهم لله وعلى علاقتهم بالله، بغير خوف ولا تردد ولا وَجَل، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

**الفصل الرابع:**

# الاستقامة على طريق الله

## الفصل الرابع: الاستقامة على طريق الله

وبعد ما علمت أيها المسكين تشخيص الحالة، وعلمت لماذا تخرج من رمضان وقد عُدتَ سيرتك الأولى ، فإن السؤال الآن:

**كيف يسير المرء السير الحثيث، المنتظم إلى الله تعالى؟**

**كيف يثبت على الاستجابة لأمر الله تعالى، وأمر الرسول ﷺ ؟**

**كيف يتحقق بمعاني المجاهدة والمحبة وكيف يحمله هذا إلى الله جل وعلا ويثبته على طريقه ؟**

**كيف يستقيم على السير في طريق الله تعالى ؟**

فالاختيار الآن بين ما ينبغي أن تكون عليه من المسابقة في الطريق ومن محبة الله تعالى ، فذلك يشعرك بالحياء من الله تبارك وتعالى والخجل أن تكون عبدًا في هذه الحال ولا تسابق طريقه، وتتنافس لتكون الأول عند الله تعالى؛

**كيف يكون المرء هو الأول في الشهداء إلى الله تعالى ؟**

**كيف يكون هو الأول في أن يدفع ماله كله لله تبارك وتعالى؟**

**وكيف يكون هو الأول في أن يقوم ليله ، وأن يداوم عليه ؟**

**وكيف يكون هو الأول في الصدقة والذكر وقراءة القرآن وتعلم العلم وحضور هذه المجالس من مجالس الخير ؟**

**كيف يكون هو السابق إلى ذلك كله ؟**

لما علم قول الله تعالى (سَابِقُوا) **علم أنه المقصود بهذه المسابقة**، وعلم أنه المطلوب أن يكون هو الأول فيها لا أن يكون المتقاعس المتأخر عنها الذي لا يحس بهذا الموضوع من أصله، ولا يهمه ذلك ولا يألمه ولا يثير فيه الأحزان والأوجاع ولا يثير فيه البكاء والحنين إلى الله تبارك وتعالى أن يكون هو المنفذ الأول لكلام الله تعالى المسارع إليه فهذه المسألة، إذًا هي الأمر الذي ينبغي أن يتفكر فيه المرء.

**فقضية اليوم هي كيفية الانتظام على السير في طريق الله...**

**كيفية المسابقة في طريق الله تعالى...**

**كيفية الثبات على طريقه حتى يصل إليه سبحانه وتعالى.**

## أولا. معركة الشكر

فبعد التوفيق للطاعة والعمل الصالح والتوفيق إلى أعمال المغفرة والعتق من النار، خرج المرء محبًّا لله تعالى؛ أن وفقه إلى ذلك وأحسن إليه سبحانه وتعالى، وأفاء عليه برحمته وفضله وكرمه وغفرانه، في الوقت الذي يرى فيه الفسقة والفجرة والكفرة بعيدين عن الله تعالى لا يعرفون طريقه جل وعلا، **لذلك كان شكر الله تعالى هو المطلوب الأول لمن أراد الاستقامة على طريقه**، لأن الشكر للنعم له ميزات منها:

**الميزة الأولى:** وهي أنه بشكر النعمة تثبت هذه النعمة التي أخذتها من الله تعالى، وبشكر النعمة تزداد النعم، كما قال الله تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ (إبراهيم ٠٠٧) فمن وفقه الله للسير في طريقه فهذه نعمة عظيمة ويكون شكرها سبب تثبيت ما كان من هذه النعمة وأيضًا في زيادتها بالمسابقة في السير في هذا الطريق، وعلى العكس فإن كفر النعم يمحقها، ويذهب بها، وكفر النعم يعني ترك الشكر ؛ لأنه قال :

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (إبراهيم: ٧).

ثم إن شكر النعم يزيد هذه النعم ؛ لذلك المرء بعد رمضان يحتاج إلى هذه القضية ؛ لأن الله تعالى قد ذكر خطورتها في قوله تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (سبأ: ١٣).

وكأن الشيطان علم ذلك، وهي قصة الشيطان التي بينها قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (الأعراف: ١٦-١٧) .

فقضية الشكر هي القضية المهمة التي يحاول الشيطان أن يفسدها على المؤمنين، حتى لا يكون من أهل الإيمان شاكرين لله تبارك وتعالى على الحقيقة؛ وأنه لا بد أن يقف لهم هذه الوقفة ويقطعهم هذه القطيعة كما قال: ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الأعراف ١٦).

**يعني : ما إن ينتهي رمضان وقد بدأوا فيه السير إلى الله تعالى حتى يقف لهم بعرض الطريق حتى لا يمر أحد.**

**ولكن هناك من يمر..... من هم؟**

**يمر الشاكرون فقط...**

الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (سبأ: ١٣) هؤلاء الذين ثبتوا على الشكر، وفي نفس الوقت بذلوا له البذل الذي يمكن أن يكون سببًا لثبات النعمة، وأن يكون سببًا لزيادة النعمة من الله تعالى.

**الميزة الثانية:** وهو أن استمرار بقاء أعمال الإيمان والطاعة بعد رمضان دليل على أنه قد قُبل في رمضان ؛ لأن المرء بعد رمضان إذا وفق للطاعة وحفظ بها دل ذلك أنه في رعاية الله تعالى، وأن الله سبحانه وتعالى حفظه، وأن الله تعالى وفقه، وقَبل عبادته في رمضان، أما **إذا لم تقبل هذه العبادات في رمضان فإن دليل الرفض ودليل الحرمان أنه بعد رمضان يُحرم هذه العبادات مرة أخرى.** النبي ﷺ كانت أعماله دِيمة، أي كانت أعماله ﷺ في شعبان وفي رمضان وفي غيرها أعمالاً لا تنقطع فإذا جاءت مواسم المغفرة ازداد في الاجتهاد ﷺ.

وإن كان النبي ﷺ قال: «**لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَةٌ وَلِكُلِّ شِرَةٍ فَتْرَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدِ اهْتَدَى**»[1]، يعني: كأن النبي ﷺ يبين للمؤمنين أن أعمال رمضان لن تتأتى لهم بعد رمضان، وأن أعمالَ رمضان أعمالٌ عالية ولا يمكن أن يستديم عليها إلا من رحم الله أو من اجتبى الله تبارك تعالى، وهؤلاء لا شك أنهم سيَنْزِلون عن تلك الأعمال بعد رمضان وسيفترون عنها، ولكن لا ينبغي أبدًا أن ينزلوا عن سنة النبي ﷺ بعد رمضان: في دوام الذكر، في دوام القيام، في حظ من القرآن، في حظ من الصدقة، في اتصال بالله تعالى... إلخ.

ولكن يأتي الشيطان ليمنع هؤلاء المتقين الذين قد تحققوا بشيء من أعمال التقوى والمغفرة من مواصلة السير، وأيضا لهؤلاء الذين خابوا.. فيُقْعِدُهم ويُمنيِّهم أنهم إن شاء الله سيعوِّضون ما فات.. فيجلسون هكذا حتى يأتي رمضان القادم ولم يحصلوا شيئًا آخر.

---

[1] رواه الإمام أحمد فى مسنده (٦٧٨٤) وابن خزيمة (١٩٧٤) وابن حبان (١١) فى صحيحيهما.

لذلك كانت هذه هي معركة المؤمن مع الشيطان في هذه الأيام... **معركة الشكر**.

وهذه المعركة تستوجب منه المحافظة على هذا العهد الذي عاهد الله عليه أن يستمر على صيامه، وذكره وقرآنه، أن يبقى على ما كان عليه من أخلاق حسنة في البذل، في الإنفاق، في الجهد، في الإحساس بقرب الرحيل إلى الآخرة، في الزهد في الدنيا، والإقبال على ربه متجردًا له محبًّا له متعلقًا به متضرعًا أن يحفظه، وأن يوفقه سبحانه وتعالى، وألا يطول عليه الفتور هذه الأيام، لأنه إن طالت هذه الأيام في بعده ونزوله عن الطاعة وفترته وانفكاك وانحلال هذه العزيمة التي كان عليها لا يستطيع أن يرجع بعد ذلك، هيهات أن يرجع المرء ؛ لأن النبي ﷺ قال : (**خاب وخسر من أتى عليه رمضان فلم يغفر له** ) [1] فإذا كان قد خرج بالمغفرة من رمضان فإن هذه المغفرة كما أشرنا أول ما يستوجب هذا الشكر، فإذا كان قد حَصَّل العتق من النار، وحَصَّل رحمة الله تعالى أن الله تعالى قد غفر له فلا بد أن يظهر عليه آثار هذا الشكر، وهي الآثار التي يسعى الشيطان لإفسادها حتى يخرج بالمؤمنين عن طريق الله تعالى. فما هي هذه الآثار ؟

## آثار الشكر : قيام الليل

وأول الآثار التي يسعى الشيطان لإفسادها على المؤمنين ليخرجهم من طريق الشكر..هو قيام الليل. إذا ما تمكن الشيطان من أن يفسد عليك هذا القيام، وأن يفسد عليك وردك من القرآن، انتهت مشكلته معك.. استراح الشيطان منك، وعلم أنك لن تستطيع أن تقاوم ذلك، وأبعدك عن الطاعات والعبادات، وتخففت منها وأجلتها وسوفت بعضها ..وتركت بعضها..حتى يصل المنحنى في النهاية إلى الصفر مرة أخرى

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٩٩٠) وأبو يعلى في مسنده (٥٧٨٩) وصححه ابن حبان في صحيحه (٤١٠).

ويعود المرء سيرته الأولى، فيأتي عليه الليل فيقول : سأنام قليلا وأستيقظ قبل الفجر، فإذا به لا يقوم ولا يصلي ؛ لذلك كان الوفاء بالعهد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه يقول : «**أوصاني حبيبي بثلاث لا أدعهن ما عشت : أن أوتر قبل أن أنام، وأن أصوم كل شهر ثلاثة أيام، وأن أصلي الضحى**» (١).

فالحَذِر، الحريص لآخرته، المترقب لها، المحب لربه المقبل عليه الذي قد خرج ليكون عمله في الطاعة عملا متصلا دائما الذي **لا يمنعه عن محبوبه شيء**، تجده متعلقًا به مقبلاً عليه محبًّا له روحه تزهق عندما يبتعد عن الإقبال عليه والتعلق به، ويعينه على ذلك حسن التوكل عليه سبحانه وأسوته في ذلك النبي ﷺ وحاله المشرف فلم يكن يشكر ويقرأ ويصلي ويقوم ويتصدق في رمضان، ثم بعد ذلك كأن رب رمضان ليس موجودًا في شوال وفي بقية الشهور، لا ..**فهذا العمل الدائم هو الأحب إلى الله تعالى**.

وليكن المرء على حذر من النقطة لأنها مرتبطة بالوفاء بالعهد الجديد مع الله تعالى فالمصيبة الأولى التي يصاب بها في قلبه وعمله والتي تكون سببًا لنكص العهد... ترك القيام. لماذا عاد بعد رمضان فلم يوفق إلى القيام ؟ ترى ماذا كان يفعل ؟

**لماذا كان في رمضان يقوم ويتهجد وطوال الليل يصلي، ثم بعد ذلك لا يصلي؟ ما الذي فعله حتى حرمه الله تبارك وتعالى ذلك؟** فقيام الليل ولذة المناجاة من الجنة، فهي ليست من أعمال الدنيا ولا من سعادة الدنيا، فالدنيا لها سعادتها التي يسعى إليها الساعون في هذه الحياة الدنيا، أما قيام الليل ولذة المناجاة والإقبال على الله تبارك وتعالى والتملق

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه (١١٧٨) ومسلم (٧٢١) كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

والدعاء والمحبة كل ذلك ليس من الدنيا... ولا من سعادتها ولا من نعيمها ولا من سرورها، وإنما من سرور الجنة ومن سعادة الآخرة.

وهذه لا يهبها الله تعالى إلا أناسا أحبهم فأقامهم لها جل وعلا، فلماذا أقامهم في رمضان وبعد رمضان انتهى ذلك ؟ حرمهم منه، **هل كان قيامهم في رمضان مغشوشا ؟** هل كان قيامهم في رمضان على غير المحبة والإقبال على الله تبارك وتعالى ؟ هل كان قيامهم في رمضان لوجود الناس فقط، ثم بعد ذلك لما اختلوا بربهم لم يوجد السبب الداعي لذلك من محبة لربهم وتعلقهم به وإقبالهم عليه سبحانه وتعالى، أو من عدم استشعارهم قرب الآخرة ودنو الرحيل إلى الله تبارك وتعالى، أو لعدم ثقتهم فيما ذكر النبي ﷺ من الفضائل التي قالها ﷺ في قيام الليل والإقبال عليه.

**التدبر لهذه المعاني أول حل لهذه المصائب؛** لأن حل هذه المصائب سيحل كثيرًا من مشاكل المرء، وهو كيفية أن يوفي المرء بعهده بعد رمضان؛

**لابد أن يوفي بهذا الوعد مع الله تبارك وتعالى...**

**ليرين الله ما أصنع.. لن أنام هذه الليلة...**

**مبدؤه بعد رمضان ألا ينام حتى يوتر،** وأن يقوم شيئًا مما كان يقوم به لله تبارك وتعالى، يستشعر به العودة إلى الله تعالى، ويستشعر به حلاوة الإيمان التي كان فيها ويستشعر بها أنه صار بها من أصحاب قيام الليل لله تبارك تعالى، الذين لهم ليلهم مع ربهم في التضرع والمناجاة والدعاء والذكر والإقبال على الله تبارك وتعالى كما ذكرهم سبحانه وتعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (السجدة: ١٦) أو كما قال: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ (الذاريات ١٧).

إذا صلحت هذه النقطة بالذات بعد رمضان يصلح معها بقية الأحوال ؛ لأن من كان ليله صالحاً كان نهاره صالحاً، ومن كان نهاره صالحًا ظهر على ليله فلما كان ليله سيئا دل على أنه كان في نهار سيىء كما يقول العلماء.

لن يمنعك مانع أن تصلي العشاء فتقوم لتحفظ ليلتك ، ستأتيك ما ذكرنا من وساوس الشيطان عن اليمين والشمال، ومن أمامك ومن خلفك لتقطعك وتأتيك العوائق ، سيقول لك الشيطان بعد العشاء: عندك مشوار، وعندك زيارة، وعندك كذا وكذا حتى يضيع عليك الليل ، يقول لك أَخِّرْ هذا القيام لما قبل الفجر، واستيقظ وحاول أن تصلي فتضيع الليلة، ثم تضيع الليلة بعدها الليلة.

## آثار الشكر: القرآن

ولأن ترك القرآن يأتي في المرحلة المصاحبة لقيام الليل، لذلك فهي الأثر التالي من آثار الشكر التي يسعى الشيطان لإفسادها على أهل الإيمان.

وهما المصيبتان اللتان يحس بهما المرء بعد رمضان، بأن ينشغل عن القرآن ويضعف ورده فيه، وتكاد علاقته أن تنقطع يوما بعد يوم إن قرأ شيئا اليوم فلعله لا يستطيع غدًا وهكذا ؛ لذلك كانت القضية الثانية والمرتبطة بإصلاح القلب والعمل هي قضية القرآن.

هذا الورد من القرآن الكريم سواء تقوم به في ليلك أو تقرأه في نهارك لا بد أن يتحقق ..لا تفرط فيه أبدًا...

**لا يمر اليوم على المرء حتى يقضي ورده من قراءة القرآن**، ومن التفكر في أعماله، وكيفية الوفاء بالعهد مع الله تبارك وتعالى؛ فلا بد وأن يقوم بورده ..ما فرط فيه في أَمْسه.. أن يقرأه في يومه.

فإذا لم يستطع المرء أن يري ربه ما يصنع في قيام الليل أن يريه ما يصنع في قرآنه وكلامه سبحانه وتعالى وهو كذلك سبيل من أعظم السبل التي يصلح بها القلب ويصلح بها العقل ويصلح بها الذهن ويصلح بها البدن، ويصلح بها الوقت وتصلح بها سائر الأحوال التي يوفيها، فإذا لم يتمكن من ذلك قال: ليرين الله ما أصنع في القرآن، ويربط نفسه ليله ونهاره في هذه الأيام ما كان فارغا فيها على كتاب الله تعالى أن يختمه كل ثلاث ليال..

**فإذا ختمه كل ثلاث ليال استعاد القلب نشاطه**، وحلت البركة مرة أخرى في القلب، واستعاد القلب قوته على مقاومة أمراض الشهوة ومقاومة وساوس الشيطان، ومقاومة وساوس النفس وبدأ القلب قويًا ثابتًا بهذا الكلام المبارك وأخذ منه قدرًا من الهدى والشفاء كما ذكر الله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ (فصلت ٤٤) فهذه الهداية التي يحصلها يستطيع بها حينئذ أن يقاوم بها شيطانه ونومه وكسله، وأن يوفي بها مع الله تعالى. و الحل الذي ينبغي على المرء

أن يحاول المرء على الوفاء به مع ربه أن يربط نفسه ثلاثة الأيام...

من ساعته التي هو فيها.. لا يؤخر ذلك وليتذكر معركته مع الشيطان،

فإن قال له الشيطان : انتظر بعد اليوم ، دعك إلى الليل ، إن شاء الله بعد العشاء.. **عليه أن يسمع كلام الله تعالى**...وأن يسارع إلى تنفيذه كما ذكر الله تعالى:

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ ﴾ (آل عمران ١٣٣)، ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ ﴾ (الحديد ٢١) ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ (المطففين ٢٦).

فدلت كل هذه الآيات أنه ما أن يسمع شيئا من كلام الله تعالى إلا ويسارع إلى تنفيذه لئلا تقطعه القواطع والعوائق والشواغل، وما يأتيه من وساوس الشيطان وأذاه الذي يقطع عنه هذا الطريق إلى الله تعالى، فدواؤك الثاني الذي يكون سبيلا لسعادتك واستعادة قوتك وقواك النفسية واستعادة هذه الهداية وهذا الهدى، وهذا الشفاء: هو القرآن الكريم كما قال: ﴿ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ ﴾ (فصلت ٤٤) وكما قال: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ ﴾ (ص ٢٩) .

فمهما أخذت منه أخذت بركة وهدى وشفاء ، فإن ربطت نفسك في هذه الأيام تريد بذلك أن تعاود ربك، وتريد بذلك معاودة الحنين في قلبك إلى الطاعة والمحبة، وتريد بذلك تقوية النفس، وأخذ البركة والنشاط، وأخذ الهدى والنور وأخذ الشفاء لهذه الأمراض التي أصابت المرء هذه الأيام.

**طريقك هو ربط نفسه هذه الثلاثة الأيام وختم كلام الله تبارك وتعالى فيها ختمة تحس فيها بعثاً جديداً.**

**وتستشعر مدداً جديداً من الله تعالى،وبركة جديدة** ، وإذا بك قد بدأت الاستقامة تحل على قلبك وبدأ ينزل على هذا القلب بحيث لا يضطرب ولا يقلق ولا يتردد في السير إلى الله فلا رجوع ولا نكث ولا تقهقر.... بل سيثبت وتبدو عليه علامات الهداية وبشريات القبول والإقبال عليه من الله تعالى، لا بد أن يحاولها المرء هذه الأيام الوفاء بهذا العهد مع الله تعالى، **إن وفى بهذا العهد سيرى حسن عاقبة ذلك.**

## آثار الشكر: ذكر الله تعالى

الأثر التالي الذي يبين شكر نعمة السير في طريق الله هو ذكر الله تعالى، فكان الأمر التالي الذي تواجه به هذه الحالة من الغفلة، بعد أن يرى الله تعالى منك صناعتك في القيام، وأن يرى ما تصنع في قراءة القرآن، أن يرى كذلك أنك من الذاكرين له كثيرا والذاكرات.

وهذه الحالة من الحالات التي نهتم بها لأمرين:

**الأمر الأول :** أن هذا الذكر إنما **يحفظ القلب** كما قال النبي ﷺ في ذكر الله تعالى: «**كرجل خرج العدو في أثره سراعًا حتى إذا أتى إلى حصن حصين حصن نفسه منهم**»[1] كذلك المرء يحصن نفسه من الشيطان بذكر الله تعالى فهذا الذكر وإدمانه حتى لو كان شعارا للسان وحلية له فقط، فهذا أخف من أن يكون المرء غافلاً قلبًا ولسانًا عن الله تعالى، وربما من كثرة ذكر اللسان يتواطأ مع القلب حتى يستشعر القلب واللسان معا أن الذكر وحلاوة الذكر، وحلاوة الإقبال على الله تبارك وتعالى فترتفع درجة المؤمن، ويكون ذلك سبب تحصينه الذي يطلبه من الله تعالى كعدو خرج في أثره سراعا حتى إذا أتى إلى حصن حصين حصن نفسه منه.

**ومن أكثر ما يذكر المرء به ربه : لا حول ولا قوة إلا بالله**، فإنها كنز من كنوز الجنة كما ذكر النبي ﷺ ، وهي تحميه من كيد الشيطان، وكذلك تحافظ عليه من وساوسه وتعينه على ما يريد ويأمل من أعمال الخير والقربات والطاعات، فكلما أكثر المرء بعد الأذكار

---

(١) رواه الإمام الترمذي في سننه (٢٨٦٣) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

التي يأتيها من التسبيح والتهليل والتكبير لله تبارك وتعالى، ومن الصلاة على النبي ﷺ أن يكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله فتجمع عليه قلبه .

**الأمر الثاني : الوقاية من التشتت وانفراط القلب** وهو قول النبي ﷺ : « **من أصبح وهمه الآخرة جمع الله تعالى عليه شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة** » [1] كيف يحاول المرء إذا أن يكون همه همًّا واحدًا ؟ هذا الهم الواحد الذي يربط عليه قلبه ويقبل بقلبه على الله تبارك وتعالى، ويجمع عليه شمله ويبتعد بذلك عن الغفلة وعن النوايا السيئة، وعن أودية الدنيا، فتذهب عنه الحالة السيئة التي هو فيها.

لهذا كانت قضية الذكر والإكثار من قول :لا حول ولا قوة إلا بالله حيث إنها من الذكر الذي يجتمع به القلب ويلم به شمله ويقبل به على قلبهَ ويجعل همه هما واحدا هو هم الآخرة إذ أن أهم الهموم أن يقوم لله تبارك وتعالى كما أراد منه جل وعلا، ومن أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه شمله لترى كيف السبيل إلى هذا المعنى ؛

**ولترى الحال التي أنت فيها** ، وهي من أصبح وهمه الدنيا فإن الله تبارك وتعالى يشتت عليه شمله ويجعل فقره بين عينيه ولا يؤخذ من الدنيا إلا ما كتب الله له، وهذا الحال الذي يبين لك السبب لماذا قد تشتت عليك الشمل، ووجدت فقرك بين عينيك، وخوفك من الغد واليوم، وكيف تفعل؟ وهذا الذهول الذي يصيب المؤمنين عن آخرتهم وعن ربهم وعن ذكرهم وعن صفاء قلوبهم وأذهانهم لتلقي هذه المعاني من نور الله تبارك وتعالى الذي يقذفه في هذه القلوب المحبة المؤمنة كما ذكر الله تبارك وتعالى:

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢١٠٨٠) والترمذي في سننه (٢٤٦٥) وقوى الحافظ العراقي إسناده في تخريج الإحياء (٢٧١/٤).

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ﴾ (الشورى ٥٢-٥٣).

## ثانيا. قصر الأمل في الدنيا والميل إلى الآخرة

وبعد ما علم كيف يجاهد نفسه على الشكر فإن الاستقامة على طريق الله تعالى والثبات عليه، لها علامة أخرى أو مطلوب آخر ينبغي أن يراه المرء في نفسه **وهو التجافي عن دار الغرور والميل إلى الآخرة والاستعداد للقاء الله تعالى** والانشغال بالنفس لإصلاح الذات لملاقاة الله تعالى، والاستقامة على هذا الطريق حتى يلاقوا ربهم تبارك وتعالى.

ولا يستقيم إلا التائبون، ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ (هود ١١٢) التائبون هم فقط الذين يستطيعون الاستقامة، والتائبون أول منازلهم وصورهم التي يتسمون بها ويتصفون بها، التجافي عن دار الغرور والميل إلى دار البقاء وإيثار الآخرة على الدنيا.

**الذي يمنع المرء من هذا التجافي وذلك الإيثار هو طول الأمل في الدنيا وعدم اليقين في سرعة الانتقال إلى الله وسرعة الرحيل إلى الله جل وعلا**.. وذلك من أهم أسباب خراب الشيطان على المؤمنين، ومن أسباب إخراجهم عن طاعة رب العالمين، بأن يقول له : إن شاء الله في العام القادم ستكون أحسن، وهذه تضيع أولاً على المؤمنين أول ما تضيع سنته هذه ؛ فيخرج متكلاً على أنه إن شاء الله في رمضان القادم سيفعل، فتضيع عليه أعماله.

من الذي ضمن لك أنك لن تؤخذ في هذه المدة ؟ وهذا الذي ينبغي أن يتفكر المؤمن فيها اليوم، وهي حال ترك الحذر من الموت، يقول: لا لن يموت اليوم، هو

شباب: غدًا إن شاء الله سأفعل، إن شاء الله العام القادم سأفعل، من الأسبوع القادم سأبدأ، إن شاء الله من السنة القادمة سأحاول.

**لو كان يظن أن ليلته آخر الليالي، وأن يومه آخر الأيام لكانت حاله غير هذه الحال،**

فلابد أن يقول : سينتهي من يومه ذلك من كل ما يكون سببا لأن يسود وجهه عند الله تبارك وتعالى، ويختم يومه بالتوبة والإقبال على الله تبارك وتعالى وإصلاح ما كان واستدراك ما يمكن أن يكون من أعمال قد فاتت عليه حتى إذا لاقى الله تبارك وتعالى؛ لعله أن يرضى عنه سبحانه وتعالى لما كان منه..

فلا يعول المرء على شبابه، على أنه ما زال في العمر بقية وفسحة، وأن هذه الفسحة بعد الشباب إن شاء الله، لا يظن أنه يمكن أن يؤخذ، كما يقول العلماء، فإذا نظر إلى شيوخ مسجده وجدهم عددا قليلا، وكأنه يقول إن الموت في الشباب أسرع من الشيوخ يعني ما عد من الموت لهؤلاء القلة وإنما الشباب هم الذين يذهبون، وأين أصدقاؤك وأصحابك ؟ كل ذلك قد طواهم الموت، ووضعوا تحت الثرى، ولم تتأثر بشيء من ذلك .

**ألم يأخذ الموت أحدا من إخوانك الشباب** حتى تعتبر وتنظر إلى نفسك هذه النظرة ؟ وإذا عولت على صحتك وأنك يمكن أن تفعل، وأن في الوقت بقية، وفي القوة بقية، وفي الصحة بقية، فلعلك يداهمك الموت، أو المرض الذي هو بريد الموت ثم تنتقل إلى الله تعالى.

**فطول الأمل هي المشكلة التي لم تحل بعد،** إذا جاءك الشيطان وقال في العام القادم أو غدا ستعمل أو بعد غد أو الأسبوع القادم أو عندما ترجع من السفر، أو عندما تخرج

من هذا المرض، أو عندما تعود من هذه المشكلة، أو عندما ...، قل له: لا ﴿ **ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ**﴾ (الحشر ١٨) **يعني إن الغد أقرب الأيام إلى الله تعالى أن تكون في الآخرة، ولو كان هناك أقرب من الغد لذكره الله تعالى**، وذكر (غد) بهذه الصيغة من صيغة التنكير ؛ لأن الغد يوم صعب وخطير ﴿**ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ**﴾ كأنه يقول هل تعرفون هذا الغد ؟ ذلك يوم خطير وعظيم، ويجب على كل أحد أن يستعد فيه لهذا اللقاء.

إن كنت تغفل عن ذكر الموت وتخالف أمر الرسول ﷺ : «**واذكروا هازم اللذات**»[١]، وإن المرء إذا ذكر الموت قرب له البعيد، وبعد عنه القريب، وظن سرعة الرحيل، أسفر ذلك له الخوف فيما هو عليه من الأحوال السيئة، فيحاول أن يتوب عن هذه الأحوال وأن يستغفر وأن يرجع وأن يخرج من المظالم وأن يكون مستعدًّا للقاء الله تعالى حذراً منه.

فلا بد أن يخلص المرء من مظالمه بينه وبين الله تعالى اليوم وبينه وبين الناس كما قال النبي ﷺ : « **من كان بينه وبين أخيه مظلمة فليتحلله اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم**» [٢] إذ لا يمكن أن يقابل ربه وعليه مظلمة بينه وبين الله أو بينه وبين الناس.

لهذا بين النبي ﷺ قضية طول الأمل فقال: «**ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي به يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه**»[٣]، فالمؤمن ليس له أمل طويل في الدنيا، ولكن كما قال ﷺ : «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وكما يقول ابن عمر : إذا**

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٠٧) كتاب الزهد ، باب ما جاء في ذكر الموت ، وقال : حديث حسن صحيح .
(٢) رواه الإمام البخاري في صحيحه (٢٤٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) رواه البخاري (٢٧٣٨) كتاب الوصايا، باب الوصايا، ومسلم (١٦٢٧) كتاب الوصية .

**أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح** »[1]، فأنت تجتهد في يومك فإن فتحت عليك بليلة شكرت الله تعالى وعددتها عمراً جديداً تتمنى لو مت أن ترجع إليه، أو أنك في ليلتك إن عشت إلى يومك شكرت الله تعالى فاجتهدت في ذلك اليوم لعله آخر يوم، لأن المولى سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (المنافقون ١٠).

يأتيه ملك الموت فيقول : أخرني يوما أتوب فيه إلى الله وأرجع، يقول : فنيت الأيام فلا يوم، أخرني ساعة، فيقال : فنيت الساعات فلا ساعة، ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا ﴾ (المؤمنون ٩٩-١٠٠). **فإذا فتح هذا اليوم فهو اليوم الذي لو ذهبت إلى الله تمنيته، فقد أعطاك الله هذا اليوم سبحانه وتعالى، أو قد أعطاك هذه الليلة فما أنت فاعل فيها؟** والفعل السيئ الذي نحن فيه اليوم أن يضيع الليلة، وأن يضيع اليوم ثم يرجع إلى الله مرة أخرى فيقول : أخرني يوما، يقال: قد أخرناك فلم تفعل شيئًا .

**لذلك** يقول النبي ﷺ في هذا المعنى : «**صل صلاة مودع**»[2]،لأنك عندما تدخل الصلاة وتظن أنك ستصلي صلاة بعدها ضاعت عليك هذه الصلاة، انشغلت وخرجت إلى السوق والبيت والمنزل والأولاد والمال وكذا و .... ثم تقول : إن شاء الله في الصلاة التي بعدها سأحاول.

---

(١) رواه البخاري (٦٤١٦) كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ كن في الدنيا كأنك غريب .

(٢) رواه الإمام أحمد (٢٢٩٨٧) وابن ماجه في سننه (٤١٧١).

هذه الصلاة ليست صلاة، هذه وسوسة وانشغال، وليست فيها حلاوة إيمان، وإقبال على الله، الصلاة التي بعدها، أما لو دخل هذه الصلاة لذلك قال النبي ﷺ : «**صل صلاة مودع**» ، صل وأنت مودع بها هذه نهايتك التي ينبغي أن تكون فيها، لذلك إذا أتى الشيطان وقال لك : في العام القادم، قل : «صل صلاة مودع ».

كان محمد أبو حبيب - أحد من السلف - يقول لزوجته كل يوم: إذا أنا مت هذه الليلة، فأرسلي إلى فلان يغسلني، وإلى فلان يكفنني، وإلى فلان يقضي كذا، فسئلت في ذلك قيل لها : هل رأى رؤية أنه يموت ؟ قالت : لا، بل كل ليلة يفعل ذلك .

وكان السلف أيضا يقال لأحدهم: لماذا لا تنام؟ يقول : أخاف أن أُبيت، يعني يؤخذ غرة ، يأخذه الموت فجأة في ليله أو يأخذه على هذا الحال الذي هو فيه.

**لذلك** لا بد أن يكون المرء على حال إذا مات يكون سببا لرضا الله عنه ونجاته، «**إذا أحب الله عبدًا استعمله، قالوا: وما استعمله ؟ قال ﷺ : يوفقه إلى عمل صالح ثم يقبضه عليه** » [1] والمرء لا يدري متى يقبض إلى الله تعالى فينبغي أن يكون على أعمال صالحة حتى إذا وافاه الأجل استعمله الله تعالى في خدمته ورضي له هذه الخدمة، وختم له به فكانت خاتمة السعادة عند الله تبارك وتعالى.

والسبب في طول الأمل الّذي نعاني منه هو حب الدنيا، **وحب الدنيا معناه أن المرء مرتبط بها، مرتبط بالمال والمسكن والأهل والولد والمركب وكذا وكذا**، وكلما أحب المرء هذه الأشياء في الدنيا تعلق بها، وإذا أحس بفراقها حاول أن يدفع هذا الفراق عن نفسه، **لأنه يكره أن يفارق هذه المألوفات التي أحبها**.

---

(1) رواه الإمام أحمد في مسنده (١١٦٢٥) والترمذي في سننه (٢١٤٣) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

**فإذا به حتى إذا خطر له خاطر الموت دفعه عن نفسه ؛ لأنه لا يحب ذلك السبب الذي يكون مبعدا له عن هذه المحبوبات وتلك المألوفات في هذه الحياة الدنيا.**

وحتى إن تذكر الموت، وازدهر سراج الإيمان في قلبه بعض الشيء إذا به يسوف ويقول : غدا إن شاء الله عندما أكبر، عندما انتهي من هذا الزواج، عندما انتهي من هذا العمل، عندما انتهي من هذه الدراسة، ولا يعلم أن الدنيا كلما فتح له فيها شغل فإن هذه الأشغال تفتح له عشرة أشغال،

ولن تأتي الدنيا يومًا ما لتقول له : أنت رجل طيب، دعك من الدنيا هذه اليوم، واشتغل بالله تعالى،

**لن تقول له هذه الدنيا ذلك ،**

**ولن تساعده نفسه المحبة للدنيا على ذلك،**

ولن يساعده ما هو فيه من الغفلة عن الآخرة، والغفلة عن لقاء الله تعالى أن يأتي بشيء من ذلك.

**إن من أهم العوامل في عدم استقامة المرء على طريق الله تعالى أنه متردد بين الدنيا والآخرة،** على أقل الأحوال، أو هو محب للدنيا يريد أن يكون له فيها شأن، أو أن يحصل فيها شيئًا، أو أن يبني شيئًا، أو أن يتزوج فيها شيئًا، أو أن يجمع فيها شيئًا.

وقد ذكرنا أن من أسباب نزول المؤمنين عما كانوا عليه في رمضان أنهم سرعان ما يخرجون إلى الدنيا، وينهمكون فيها، ويشتغلون بها: الأهل والمال والولد والشهوات، علاوة على شهوات وآفات النفس التي قد عطلت المرء عن السير إلى الله تعالى وقيدته وربطته من أقدامه لئلا يقوم لله تعالى، أو أن يسير إلى الله تعالى، وكانت السبب المباشر كما

ذكرنا في التثاقل إلى الأرض كما قال تعالى في مسألة الاستبدال في قوله تعالى:﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [التوبة: ٣٨]، والمتاع: ما يستمتع به من مال، من زوجة، من منظر، من مسكن، ثم يزول وينتهي.

وهذا المتاع القليل كان السبب في الرجوع عن مفترق الطرق، وعن استكمال السير إلى الله؛ فجاءت الدنيا فعوقتنا ومنعتنا من أن نواصل السير إلى الله تعالى لهذا المتاع وهذا التثاقل إليها كما ذكر الله تبارك وتعالى:﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧]، ثم الانتقال بعد ذلك إلى أن تكون الدنيا همه الذي ينشغل به وينام له ويستيقظ له، ويسافر له ويتعارك له ويرضى له ويغضب له.

**إن محبة الدنيا ومحبة الآخرة لا يجتمعان في قلب المؤمن** حتى وإن اجتمعت له الدنيا؛ فلا يجتمع حبها في قلبه ولا تكون الدنيا في قلبه أبدا، وإنما كانت في أيدي الصحابة، فكانوا خزانًا لها فقط يصرفونها في مصارف الرب الشرعية التي أرادها لهم ولا يكنزونها وإنما يصرفونها كما أراد الله تعالى؛ لذلك قال تعالى:﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد: ٧].

ونُذكر الآن بتطبيق عملي بينه القرآن الكريم لقضية الدنيا والتوسع فيها، وأنها سبب الانشغال عن الآخرة ونبين تحقير الله سبحانه وتعالى لها، ونظرة النبي صلى الله عليه وسلم لها.

## ثالثًا : القصص القرآني المتعلق بحب الدنيا

وهي الصورة التطبيقية من كلام الله تعالى لقصة الدنيا التي حقرها الله وما ينبغي أن يفهمه المؤمنون من ذلك، وكيف يتوجهون لثواب الله تعالى وينصرفوا إليه ليحصلوه، وأن يعلموا أن الدنيا ستأتيهم ولكن تأتيهم على طاعة الله ومحبته، وتأتيهم راغمة ولن تخرج نفس من هذه الدنيا حتى تستوفي أقصى رزقها وأجلها، لن تموت وقد بقي لها شيء وإنما قد انتهى كل شيء لها عند الله جل وعلا[1].

**ونبدأ بقصة قارون**؛ فهي تبين كيف أنه جمع الدنيا وانشغل بها، وكيف عذب الله تعالى أهلها في الدنيا قبل الآخرة عندما كانت سببًا لنسيان الرب والطغيان على الخلق مع نسيان النفس وما كان فيه المرء فكانت العاقبة التي سمعنا في القرآن الكريم وهي: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١].

وتبدأ القصة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢/٧٢٥ ، رقم ٢١٤٤)، وأبو نعيم في الحلية (١٠/٢٧)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/١٨٥ ، رقم ١١٥١)، والبزار (٧/٣١٤ ، رقم ٢٩١٤) ، وقال المنذري (٢/٣٣٩) : رواته ثقات إلا قدامة بن زائدة بن قدامة فإنه لا يحضرني فيه جرح ولا تعديل . وقال الهيثمي (٤/٧١) : فيه قدامة بن زائدة بن قدامة ولم أجد من ترجمه، وبقية رجاله ثقات . وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٤/٧٧) : رواه ابن أبي الدنيا في القناعة ، والحاكم من حديث ابن مسعود وذكره شاهدًا لحديث أبي حميد وجابر وصححهما على شرط الشيخين . ولفظه (إن روح القدس نفث في روعي أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها، فأجملوا في الطلب، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله؛ فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته).

﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾ [القصص: ٧٦-٧٧] وكان رده: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨].

وبقية الحوار: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ٨١ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٢ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص: ٧٨-٨٣].

وهذه القصة لها علاقة بما كان بين النبي ﷺ والمشركين في مكة؛ حيث إن المشركين في مكة أرادوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرد عنه فقراء المسلمين الذين آمنوا به حتى يأتي إليه وجوه قومه لعلهم يسلمون حتى لا يكونوا تبعًا لهؤلاء الضعفاء الفقراء من عبيدهم وأرقائهم(١)؛ فضرب الله تعالى المثل للنبي ﷺ.

---

(١) رواه مسلم(١٢٧/٧ ، رقم ٦٣٩٤). ولفظه (عن سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه :قال : كُنَّا مع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ستَّةَ نفرٍ ، فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم : اطْرُدْ هؤلاءِ لا يَجْتَرِئون علينا ، قال : وكنتُ أنا وابْن مسعود ورجل من هُذَيْل وبلالٌ ورَجُلان – لستُ أسمِّيهما – فوَقَعَ في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء اللهُ أن يقعَ ، فحدَّثَ نفسه ، فأنزل الله : {ولا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغَدَاةِ والعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ}. ( الأنعام : آية٥٢)).

وقال المفسرون: إن الله جل وعلا ما ترك مثلاً من الأمثلة التي مرت قبل ذلك إلا وضربها للنبي ﷺ؛ تبيانا له لما حدث للمشركين من قبل مع أنبيائهم، وكان من هذه الأمثلة قصة قارون.

ومختصر القصة أن قارون جمع وجمع، فكان ذلك الجمع سببًا في نسيان الرب سبحانه وتعالى، وسببًا في الغفلة عن الآخرة؛ وكذلك كان سببًا إلى التكبر بذلك المال والتجبر به ونسيان أن الله هو واهب هذا المال ومعطيه إياه، وأنه كان ينبغي أن يحسن به إلى خلق الله تعالى كإحسان الله إليه، ولا يقصد بهذا المال العلو في الأرض ورؤية النفس والكبر على الخلق والشح عليهم بذلك المال، أو أن يتكلم بلغة المال بعد ذلك وينسى ما كان فيه، وأن يخرج بماله يتفاخر به على الناس؛ حتى يكون سببًا لفتنتهم، وأن يطلبوا مثل ما هو فيه، وأن يتمنوا ذلك، وأن يتشوفوا إليه لما رأوا من الزينة التي قد تأخذ بعقول وقلوب العلماء فضلاً عن غيرهم، إلى أن كانت العاقبة كما سنرى في تفصيل الآيات.

نبدأ بقوله سبحانه وتعالى:﴿ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ ﴾ فقارون كان ابن عم موسى عليه السلام، وكان عالمًا بالتوراة، وهي **النقطة الأولى** التي ينبغي أن يفهمها أهل الإيمان، وهي كيف أن الدنيا تسحر قلوب المؤمنين، وأنها لم تبق كبيرا ولا صغيرا إلا وقد استهوته إلا من رحم الله سبحانه وتعالى، وأنها إذا فتحت على أهل العلم أو فضلا عن غيرهم فإنها يمكن أن تغير قلوبهم، ويمكن أن يئولوا ما هم فيه من طلب الدنيا والتوسع فيها والارتفاع بها تأويلات تكون سببًا في استمرارهم في التوسع في الدنيا، وسببًا في زيغ الشيطان بهم عن الطريق المستقيم، وسببًا لسكونهم إلى الغفلة التي هم فيها وإلى نسيان الآخرة، وهي المصيبة التي نعانيها اليوم.

**والنقطة الثانية** في قوله: ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ ﴾ أن ذلك يستدعي أن يتلطف بهم، وأن يقوم لهم، وأن يقف لهم في أفراحهم وأتراحهم؛ فيكون ذلك سببًا لأن يأخذ فيهم الثواب، وسببًا في أن يرتفع بينهم بسبب الأعمال الصالحة والفضائل الدينية والأخلاق العالية إذا به يقول:﴿ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ بدلاً من أن يكون منهم !

وذلك يبين ذلك المعنى: أنه كان منهم ومعاشرًا لهم ويحيا بحياتهم ويدين بدينهم، ويأكل من أكلهم، ويعيش عيشتهم، ثم إذا فتح عليهم، يكون الطغيان والبغي ونظرة التعالي التي ينظر بها إلى إخوانه بعد ذلك، وأن يكون الكلام معهم كلام الدنيا والمال وكلام العلو والبطر وكلام إظهار شأن النفس وأنها كذا وكذا وأن لها قيمة، وأن لها خطرا وكل ذلك بسبب المال الذي قد أعطاه الله.

قد كان فقيرا فجمع هذا المال وكان معدما فأعطاه الله تعالى، وكان لا يملك شيئًا فصار يملك أشياء كثيرة في هذه الحياة الدنيا من زينتها ورياشها يعني: من سياراتها وبناياتها وأموالها ومزارعها ومراكبها وكذا وكذا.

ثم بدأ في الطغيان ﴿ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ ﴾ والكنز هنا كما يصوره القرآن الكريم معناه: ذلك الشيء الذي يوضع فيه المال كالخزانة مثلا ثم يغلق بالمفتاح كما قال:﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ ﴾ يعني: من خزائن المال التي بدأ يدخرها، أو بدأ يضعها فوق بعضها ليطغى بها ويبغي بها على خلق الله تعالى.

وقوله: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ﴾ حتى لا ينسى المرء نفسه، ولا ينسى أن الله صاحب الفضل جل وعلا، وأنه المعطي الوهاب، وأنه جل وعلا إذا شاء شيئًا فلا راد له جل وعلا،

وحتى يعلم المؤمنون الخائفون على الدنيا أنه يمكن أن يأتيهم سبحانه وتعالى مثل ما أتى فلانًا، وأن يعطيهم مثل ما أعطاه، وأن هذا العطاء ليس من فلان لكونه فلانًا، ولا من فلان لكونه هو الذي قد فعل وفعل لا إنما هو محض عطاء الله تعالى، وأن الله يمكن أن يرزقك أيها المسكين كما رزقه وأفضل من رزقه، وأنك إن اتجهت إلى الله وجعلت وجهتك وطلبك وإخلاصك ومقصودك إياه فإنه سبحانه وتعالى يعطيك أفضل ما يعطي أحدًا.

﴿ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ ﴾ ومفاتحها: جمع مفتح، والعصبة هنا هي شيعة قارون في مقابل موسى عليه السلام وقومه بعد أن خرج قارون على قوم موسى بغيًا وعدوانًا كان له من شيعة موسى شيعة كبيرة تشايعه، وتقوم على مصالحه، وتزين له الدنيا وتحضر له ملذاتها، وتهيئ له شهواتها وتتوسع له فيها، وتأتي له بكذا وكذا كما يفعل بطانة الدنيا اليوم في أموالهم.

ثم بدأ الحوار الذي ينبغي أن يكون بين المؤمنين وبين من خرجوا عليهم بسبب الدنيا وبسبب التوسع فيها، **فلا بد وأن يكون من المؤمنين الموعظة التي يعظون بها هؤلاء، ويذكرونهم فيها بتاريخهم الذي كانوا فيه من العلم والدين**، أو كانوا فيه من القلة والذلة، أو كانوا فيه من التعامل الحسن بينهم وبين إخوانهم، وأن ما كانوا فيه كان سببًا لسيرهم إلى الله تعالى ولأخلاقهم الحسنة، ثم كانت الدنيا سببًا لهذا البغي والعدوان والظلم والأشر والبطر والكبر والعلو؛ فحقهم عليهم إذن أن ينصحوهم، وأن يوالوهم بالموعظة والتذكير بالله تعالى وزوال الدنيا، وأن يذكروهم بما كانوا فيه، وأن يذكروهم بأنهم مهما كانوا في مال أو غيره إن كانوا متصلين بالله تعالى فإن هذا المال يعود عليهم وعلى غيرهم بالخير إن هم أرادوا وجه الله تعالى والدار الآخرة؛ لذلك يقول: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ ﴾ لما

رأوا منه هذا العلو والفساد، لأن معنى بغى عليهم: اعتدى عليهم، بالقول أو التطاول أوالتهوين من شأنهم والتصغير والتحقير لهم، ويمكن أن يكون الاعتداء أزيد من ذلك، فإن تمكن أن يأخذ مال أحد أخذه وأضافه إلى ماله، وهكذا تسير الدنيا في هذا الاعتداء الذي تصوره القصة، وكأنه شاخص أمامنا اليوم.

وذلك يأخذ منه المرء العبرة لنفسه والموعظة لغيره، **ويتعلم أنه ليس له إلا طريق الله تعالى يسير فيه**، وأن دنياه ستأتيه راغمة إن جعل همه في هذه الدنيا هو همّ الآخرة، لأن من جعل همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن أصبح وهمه الدنيا فرق الله عليه شمله[1] في هذه الأودية: في المال والنساء والسفر وكذا وكذا وكلما جمع مالاً أراد أن يقضي بها شهواته؛ فأول ما يفكر، يفكر في النساء، وإن كان عنده بيت أن يزيده إلى بيتين، أو مركبًا يغيره ويحاول أن يكون عنده كذا وكذا، ولم يعد له قلب يذكر به ربه أو يشكر به نعمته، أو يذكره بالرحيل إلى الله تعالى.

نستكمل: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ كانت هذه بداية الموعظة التي يعظونه بها ﴿ لَا تَفْرَحْ ۖ ﴾ والفرح المقصود هنا ليس الفرح الطبيعي الذي

---

(١) حديث أنس أخرجه الترمذي (٤/٦٤٢ ، رقم ٢٤٦٥) ، وابن ماجه (٢/١٣٧٥ رقم ٤١٠٥) وهناد (٢/٣٥٥) ، وحديث ابن عباس : أخرجه الطبراني (١١/٢٦٦ ، رقم ١١٦٩٠) وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٨/٤٦٣): أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد، والترمذي من حديث أنس بسند ضعيف نحوه. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٤٣٢): روى ابن ماجة بعضه ورواه الطبراني في الأوسط ورجاله وُثقوا . ولفظه (عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- : «مَنْ كانَت الآخرةُ هَمَّهُ ، جعل الله غناه في قلبه ، وجمع عليه شَمْلَهُ ، وأتَتْهُ الدنيا وهي راغِمَة ، وَمَنْ كانت الدنيا هَمَّه ، جعل الله فَقْرَه بين عينيه ، وفَرَّق عليه شَمْلَهُ ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له». زاد في رواية «فلا يُمسي إلا فقيرًا ولا يُصْبِحُ إلا فقيرًا ، وما أقْبَلَ عبد إلى الله بِقَلْبِه ، إلا جعَلَ الله قُلُوبَ المؤمنين تنقاد إليه بالوُدِّ والرحمة ، وكان الله بكل خير إليه أسْرَع»).

يفرحه المرء، وإنما المقصود هنا بالفرح هو الأشر والبطر الزائد على الفرح العادي الذي يفرحه والذي تميل إليه النفس، فقوله :﴿ لَا تَفْرَحْ ﴾ يعني: لا تتبطر، لا تزدهي بمالك ودنياك هذا الزهو، ولا تعلو به هذا العلو، ولا تتكبر به هذا الكبر كيف؟ لأن هذا الفرح بداية الكبر والعلو والتطاول بعد ذلك، وذكروه هذا الذكر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ لا يحب أهل البطر والأشر، كما قال المولى سبحانه وتعالى في هذه الآية: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [القصص: ٥٨].

ثم استكملوا النصيحة: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ ﴾.

وقوله: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ وهي موعظة المؤمنين التي ينبغي أن يهتموا بها، ومعناها: إن ما آتاك الله تعالى ابتغ به الدار الآخرة، وحتى لا تضيق عليه نفسه وحتى لا يقول: كل مالي أعطيه للآخرة قيل له: ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ وخرج قوله تعالى: ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ ﴾ من السياق، فالأصل أن الإحسان الذي أمر الله به داخل في ابتغاء الدار الآخرة ولكن الله خصصه بالذكر حتى يرى المقابل له وهو: **من الذي أحسن إليك فأعطاك هذا المال وهذا الرزق وهذه الدنيا؟** كيف قد أحسن إليك ابتداء بغير استحقاق منك؟ ما الذي فعلته إلى الله تعالى حتى يعطيك منذ كنت صغيرًا أو قبل أن تولد؟ لم تعطه شيئًا ولم تفعل له شيئًا ليكون سببًا أن يعطيك ويهبك ويمن عليك سبحانه وتعالى؛ لذلك قال:﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ ﴾ يعني: وأحسن إحسانا شبيها بإحسان الله إليك، ولا تخلط هذا الإحسان

بالإفساد في الأرض ﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ وإنما هو إحسان خالص لله تعالى ترجو به المولى سبحانه وتعالى والدار الآخرة، لا تخلطه بفساد من رياء أو سمعة أو فخر أو ازدهاء أو علو أو كبر، ولكن كما قال: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص: ٨٣].

انظر إلى رد قارون- وهو رد المتكبرين في كل زمان- ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ ﴾ إنما وهي على قولين في تفسير أهل العلم:

**القول الأول:** ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ ﴾ يعني: أن عنده علم من الله تعالى هذا العلم جعله يستحق من الله تعالى هذا المال وهذه الدنيا التي هو فيها، كأنه يقول: أنتم لا تفهمون **فإن الله تعالى يعلم أنني أستحق ذلك؛ فأعطاني إياه**، وهو كلام أهل الدنيا اليوم الذين إذا ناقشتهم وقلت لهم: لا تفرح ولا تتبطر واذكر تاريخك الأسود الذي كنت فيه وأيامك التي لم تكن تجد فيها ما تأكله، أو اذكر أن هذه الدنيا زائلة وستموت. يقول: إن الله تعالى قد أعطاني ذلك؛ لأنني أستحق.

**والقول الثاني:** ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ ﴾ يعني: علم بأمور الدنيا والتجارة، وأن الله تعالى قد يسر له ذلك **وأنه قد حصل ذلك بعلمه وخبرته وسيره في الأسواق وضربه في الأرض** إلى غير ذلك مما يقوم به هذا الرجل من أعمال أو غيره يحصل بها الدنيا.

بماذا رد عليه القرآن الكريم؟ قال: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً ﴾ والمعنى: هذا الذي يدّعي هذا الكلام ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً ﴾ وكأنه لم يقل ﴿ إِنَّمَآ

﴿ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ إلا وقد **قالها بتكبر وطغيان ونسيان لله تعالى** للدرجة التي قال القرآن فيها: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ ﴾.

فكأنه قال: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ وأنني سوف أحصل أكثر من ذلك وأعظم من ذلك، وأنني يمكن أن أفعل كذا وكذا، ولا يكون لأمثالكم أن يكلموني أو يعظوني أنتم لا تعلمون مثل علمي في التوراة ولا مثل علمي بالدين، وأنا أعرف الدين أكثر منكم، وأنا أعرف ما جاء به موسى أكثر منكم؛ فإذا بهذا الطغيان يكون الرد من الله ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ ﴾ هذا الذي يتكبر على الله، ويظن أن بماله يمكن أن يفعل وأن يفعل، وأنه صار شديدًا وقويًا، وأنه متمكن من أن يوقع بهم وأن يهلكهم ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ دُمِّرَ من قبله قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم والجبلة الأولين الذين ما كان يقوم لهم أحد، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

إذا به لما ادعى هذا الكلام الذي يدعيه الناس المؤمنون اليوم، رد عليه القرآن بهذا الرد؛ إن أهل الإيمان اليوم إذا قلت لهم: هذه الدنيا زائلة ولا تغتر بها يقول: كيف تقول ذلك؟ **هذا على علم الله تعالى أنني أستحقه**، وكان في الصحابة من هو صاحب مال: كان فيهم عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وفلان وفلان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وكانوا ذوي مال وذوي متاع كبير في هذه الحياة الدنيا، كيف تنكر علي أن أكون مثلهم؟

نقول له: تكون مثلهم في أن تحصل مالاً، ولا تكون مثلهم في أن تجاهد في سبيل الله، وأنه إذا طلب منك المال بذلته كله؟ عثمان بن عفان لما أمر النبي بتجهيز جيش العسرة وصل الحال به سبعمائة ناقة بما عليها تبرع بها في سبيل الله وألفا دينار ذهبًا نثرها في حجر النبي صلى الله عليه وسلم حتى قال النبي: « ما ضر عثمان ما فعل بعد ذلك».(١)

ثم تأتي لتشبه نفسك به أيها المسكين الحريص الشحيح البخيل المتكبر المتوسع في الدنيا المستمتع بلذاتها ! **هل توسع هؤلاء في الدنيا ونسوا بها الآخرة كما نسيت نفسك وربك؟ وهل توسعوا في الدنيا بهذا المعنى؟** أو أنهم ساروا في الآخرة؛ فأتتهم الدنيا وهي راغمة؟

﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ كأنه وصلنا إلى التهديد أن المجرمين إذا وصلوا إلى هذا الحد لا يسألون عن ذنوبهم، فلا يقال له: فعلت كذا وكذا، فقد فعلوا ما وصل بهم إلى أن يأخذهم الله تعالى بغير أن يمهلهم، كما يقول سياق الآيات بعدها.

**هل أثرت الموعظة في قارون؟** بعدما وصل به الحال إلى أن قال:﴿ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ كلا؛ إنه لم يستمع إلى الموعظة، ولم يلتفت إليها، وإذا به يخرج في زينته كأنه لم

(١) أخرجه أحمد (٥/٦٣ ، رقم ٢٠٦٤٩) ، والحاكم (٣/١١٠ ، رقم ٤٥٥٣) وقال : صحيح الإسناد . وأبو نعيم في الحلية (١/٥٩) . ولفظه (عن عبد الرحمن بن سمرة - رضي الله عنهما - : قال : «جاء عثمانُ إلى النبيِّ -صلى الله عليه وسلم- بألفِ دينار - قال الحسن بن واقع في موضع آخر من كتابي : في كُمِّه -حين جَهَّزَ جيشَ العُسْرة ، فنثرها في حَجْره.

قال عبد الرحمن : فرأيتُ النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- يُقلِّبها في حَجره، ويقول: ما ضَرَّ عثمانَ ما عمل بعد اليوم - مرتين»).

يسمع شيئًا، ولم يوعظ بشيء ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾ لم يلتفت إلى نصح الناصحين ولا تذكير المذكرين.

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾ يعني: في ملأه ومتاعه العظيم الذي هو فيه وزاد على ذلك تلك الزينات العظيمة التي تأخذ بالأبصار والتي تذهب بالعقول والتي تجعل أهل الدنيا يقولون:﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ .

الذين يريدون الحياة الدنيا هم الأكثرية الغالبة الطاغية سواء كانوا يريدونها بلسان المقال أو بلسان الحال أو بالتطلع والتشوف إليها، أو بمحبة زهرتها كما ذكر الله تعالى، وقد نهى الله تعالى النبي عن التطلع أو التشوف أو التمني لذلك، كما أشارت إلى ذلك الآيات.

**وجاء موقف أهل الإيمان متمثلاً في كلام أهل العلم الذين ما كان لهم أن ينغرسوا في الدنيا أو ينغمسوا فيها**، أو أن يتتبعوا شهواتها أو أن يميلوا إليها، أو أن يركنوا إليها شيئًا قليلاً أو كثيرًا هؤلاء الذين وثقوا بما عند الله وهؤلاء الذين علموا أن ما عند الله خير وأبقى، هؤلاء الذين قال المولى فيهم بعد ذكر الآية يقول: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾.

وقوله:﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ﴾ والويل هو: الدعاء بالهلاك، ولكنه كذلك في نفس الوقت إنما هو تعجب من الحال مع الزجر وهو الأولى بهذا السياق؛ لأنه سياق النصيحة وسياق النصيحة الأولى فيه أن يكون المقصود هو التعجب وليس الدعاء عليهم بأن يهلكوا؛ لذلك كان سياق ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ يعني: يتعجبون من حالهم كيف يقدمون هذا الذي عند قارون الزائل والذي ليس فيه من الفضائل الدينية

شيء، وأن قارون هذا قد وصل به الحال إلى تلك الصفات السيئة والأخلاق الرديئة ونسيان الرب سبحانه وتعالى والتكبر والتعالي بهذه الدنيا، كيف يقدمون ما عند هذا الرجل الذي قد وصف بهذه الأخلاق السيئة المرذولة، على ما عند الله جل وعلا؟

فهم يتعجبون منهم ويزجرونهم على أن يكون ذلك حالهم، وعلى أن يكون ذلك فكرهم، وهو السؤال المطروح للمؤمنين اليوم: **كيف يفكرون أن ما عند قارون هو الخير لهم، وأن يقضوا فيه أوقاتهم وعمرهم؛ ليكون سبب نسيانهم الآخرة،** ليأتوا بعد ذلك ليسألوا هذا السؤال: إن الإنسان قد صارت أحواله إلى السيئ، وأنه لا يتأثر بالقرآن ولا بالموعظة وأنه قد ضعف في قيام الليل وقراءة القرآن، وقلت أعماله في الدين، وقلت حلاوة الإيمان في قلبه وصار غافلا لا يذكر الله إلا قليلاً، ونسي آخرته ولقاء الله تعالى ولم تعد تؤثر فيه الموعظة ماذا يفعل؟ تلك هي حالته التي صورها الله تعالى كيف يرضى لنفسه أن يكون ما عند قارون هو الأولى له والأهم له؟ كيف يكون ما عند قارون هو الذي يسعى إليه ليحصله ويترك ثواب الله مع أن ثواب الله تعالى يحصله بالإيمان والعمل الصالح ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ [النساء: ١٣٤] ؟ فيحصل ثواب الدنيا إذن بعمل الآخرة كما قال الله تعالى.

وقوله : ﴿ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾ يبين أمران؛ **الأمر الأول:** أن قارون لم يعبأ بثواب الله تعالى، وأن ثواب الله تعالى ليس عنده على بال ولا على ذكر؛ فخرج في زينته التي ذكر الله تعالى ملتفتا إلى الدنيا ناظرًا إليها لا يتذكر ثواب الله، ولا يهمه في قليل أو كثير.

**والأمر الثاني: أنه لم يقل: ثواب الله خير لكم** إنما قال: ﴿ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾ لأنه خير من كل جهة **لكم ولغيركم**، وأن ثواب الله والذي ينبغي ويجب أن تنتبهوا إليه وأن تحصلوه؛ فهو خير من هذا الزائل، ولكن لمن؟

﴿ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ لمن صح إيمانه وسار إلى العمل الصالح والتقرب إلى الله تعالى والاستعداد للقاء الله جل وعلا، وتقديم ما عند الله جل وعلا على الدنيا الزائلة، وتجهيز جهازه لملاقاة الله تعالى والعلم بأنه يوشك أن يرحل إلى الله جل وعلا، وأنه لا يحصل هذا الثواب إلا من كان قد صح إيمانه وقوي إيمانه وارتفع عمله وزادت أعماله الصالحة إلى هذا الحال الذي يفضل به ما عند الله على ما عند قارون هذا الزائل الذي سترون عاقبته فورًا.

ماذا كانت العاقبة؟ ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ والفاء في قوله: فخسفنا، للتعقيب، فما أن انتهى هذا النقاش وهذا الحوار بين محبي الدنيا وبين العلماء حتى وقع ذلك الخسف، فجأة **انتهى قارون ومال قارون ودار قارون وشيعة قارون**، وهي معجزة من معجزات موسى عليه السلام: أنه هم واقفون ينظرون إلى قارون وزينته إذا بقطعة الأرض فقط التي عليها قارون هي التي يصيبها الزلزال، والخسف هو أن يجعل بطن الأرض إلى ظاهرها، فإذا بقطعة الأرض التي وقف عليها قارون وفيها داره وماله وأهله وسلاحه وزينته ورياشه وقوته وشيعته وأنصاره فقط هي التي يخسف بها !

لم يتعد الخسف إلى ذلك المكان الذي يقف فيه هؤلاء الضعفاء، أو يقف فيه أحد من شيعة موسى عليه السلام؛ معجزة لموسى عليه السلام عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام هذه المعجزة لتبين صدق موسى فيما أمر به وصدق أهل العلم فيما وعظوا به

قارون وفيها وعظوا به ضعاف الإيمان وطالبي الدنيا والسائرين فيها ليحصلوا شيئًا يكون سبب انشغالهم عن آخرتهم ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾.

انظر إلى هذا الحال كأنه يقول: هذه الدار التي خسفناها هي الدار الزائلة؛ لأنه بعد ذلك قال:﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ [القصص: ٨٣] الدار الخالدة الباقية ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ والدار المخسوفة المزلزلة التي أخذت أهلها وانطبقت بهم تلك الدار الفانية التي سعى لها الفانون هؤلاء الزائلون فكان مصيرهم بهذا التكبر والعلو ونسيان الرب جل وعلا أن صاروا إلى هذا الحال فتلك حال هؤلاء وتلك حال هؤلاء بائنة لأهل الإيمان متضحة لهم ليختاروا أي السبيلين ليسيروا فيهما.

لذلك يقول:﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ ، وكان يمكن أن يخسف بقارون وتبقى أرضه أو تبقى داره هكذا شاهدا على ما كان فيه، ولكن الله تعالى أظهر المعجزة ليبين لهم **أنه يمكن أن يخسف بدارهم من أولها إلى آخرها، وبأموالهم من أولها إلى آخرها**؛ لذلك قال بعدها:﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أين الذين كان يحتمي بهم؟ وأين الذين كانوا يحمونه؟ وأين الذين كانوا يقفون له متسلحين؟ وأين الذين كانوا يصدون عنه ويردون عنه؟ وأين كان الذين يحصلون له الدنيا ويحملونها على أكتافهم إليه؟ لقد ذهبوا جميعًا:﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ فلا انتصر هو بنفسه كما كان يدعي﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ ولا انتصرت فئته له، أو وقفت له أو منعت عنه أو دفعت عنه.

وهي موعظة لأهل الدنيا ومحبيها والمتطلعين إليها والمتشوفين إلى الحصول منها على شيء، والذين نسوا ثواب الله تعالى وأرادوا ما عند قارون، الذين نسوا آخرتهم بجمعهم الدنيا، وهي كذلك تبين منزلة العلماء الذين كانت مهمتهم إيقاظ الناس لحقيقة الدنيا وهي المهمة الأساسية التي ينبغي أن يتوفروا لها، وأن يقضوا لها وقتهم وجهدهم، وأن يسيروا فيها لا يتزحزحون.

ثم ماذا بعد؟ اسمع إلى الندامة من أهل الدنيا وطالبي الدنيا الذين يريدون حظا من حظ قارون، أو يريدون شيئًا مما حصله هذا القارون يقول:﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ ﴾ وأصبح هنا بمعنى صار، فصار الذين تمنوا مكانه بالأمس الذين قالوا:﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ صاروا إلى الندامة وجهروا بها وأعلنوها واضحة: ﴿ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ ﴾ **وهذا تحذير لهؤلاء المشتاقين إلى الدنيا المتطلعين إليها المحبين لها** الذين ينظرون إلى أصحابها فيتمنون ما عندهم، أو الذين ينظرون إلى أصحاب الدنيا فيريدون أن يكونوا على حالهم، أو أن يحصلوا فتاتا من فتاتهم أو شيئًا من أشيائهم أو رياشا من رياشهم حتى يكونوا على مثلهم في التنعم بها والتلذذ وقضاء الوطر والشهوات من هذه الدنيا الزائلة.

الجزء الأول في الآية يقول: ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ ﴾ **فرجعوا إلى حكمة الله تعالى في بسط الرزق وقبضه لمن شاء من عباده**، رجعوا إلى حكمة الله تعالى والإيمان بها إلى أن الله تبارك وتعالى يوزع ما يشاء على من شاء لحكمته سبحانه وتعالى وعلمه جل وعلا،

ويوزع ذلك بقدرته وقوته جل وعلا، وأنه هو الحكيم العليم بما يصلح الناس وبما يفسدهم، وأنه يمنع عن المؤمنين ما يفسدهم ويكون سبب هلاكهم، **فما حرمهم هذه الدنيا لهوانهم عليه**؛ لأنه لو كانت الدنيا تساوي عند الله شيئًا ما سقى الكافر منها شربة ماء[1]، وإنما لهوانها وقلتها أعطاها لمن شاء كما يقول.

وهي الحكمة التي ينبغي أن يرجع المؤمنون إليها اليوم، وأن يعلموا كيف أن الله تعالى يبسط الرزق ويضيق الرزق بحكمته وقدره وقضائه سبحانه وتعالى، **وأنه ما يفعل شيئًا عبثًا وهذا الذي يدفعهم إلى الرضا بما هم فيه** وأن يرضى كل أحد بما قسم الله له، وأن يعلم أن ما قسمه الله له إنما قسمه لهذه الحكمة التي لو خرج عنها لخرج إلى الفساد والهلاك كما بينت الآية ولا يمنع هذا أن يطلب رزقه كما قال: ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾.

ولعل أهل الإيمان قد فهموا هذه المعاني في كيفية أن يحصلوا ما عند الله تعالى، وأن يعلموا نهاية وعاقبة العلو بالمال، وأن يؤثروا رضا الله تعالى لحكمته التي قضى بها ووزع بها أرزاقهم، وأن يسيروا على طاعته، وأن يعلموا ثواب الله هو الخير لهم وأن يسيروا على هذا الثواب يطلبونه فيعطيهم سبحانه وتعالى الدنيا والآخرة معًا كما قال جل وعلا: ﴿ وَٱلْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٥] ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً

(١) أخرجه الترمذي (٤/٥٦٠، رقم ٢٣٢٠) ، والطبراني (٦/١٥٧، رقم ٥٨٤٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/٣٢٥ ، رقم ١٠٤٦٥) ، والحاكم (٤/٣٤١ ، رقم ٧٨٤٧) ، وقال : صحيح الإسناد، وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٧/٢٤٦) : أخرجه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده من حديث سهل بن سعد وآخره عند الترمذي وقال حسن صحيح ، ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث المستورد بن شداد دون هذه القطعة الأخيرة ، ولمسلم نحوه من حديث جابر . ولفظه (عن سهل بن سعد - رضي الله عنه - :قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : «لو كَانت الدُّنيا تَعْدِلُ عند الله جَناحَ بَعُوضَةٍ ما سقَى كافرا منها شَرْبَة»).

وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥].

فلعل المؤمنين يوفرون وقتهم وجهدهم لمعرفة ما عند ربهم وتحصيل الثواب الذي أعده لهم، وليحذروا هذا القول الذي ذكره في نهاية القصة في قوله تعالى: ﴿ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ يعني: **لولا أن منَّ الله علينا لخسف بنا بما كنا نتطلع إليه من تحصيل الدنيا**، ومن كانت هذه نيته فكأنهم شاركوا قارون في نيته؛ فيأخذون حكمه، أو كأن الله تعالى قد منَّ عليهم بأنه لم يعطهم ما أعطى قارون، فيخسف بهم سبحانه وتعالى كما خسف بقارون، أو أن الله جل وعلا قد صرف عنهم ذلك العلو والتكبر في هذه الحياة الدنيا بمنه وكرمه، وليعلم المرء حينئذ أن منة الله تعالى تحيطه، وأن ذلك تحذير من الله له يوشك أن يأخذه سبحانه وتعالى إذا استمر على هذا الفكر الفاسد وعلى هذا التطلع الذي يريد به الحياة الدنيا.

كانت هذه الموعظة مما ينبغي لأهل الإيمان أن يأخذوها بجد، وأن يكون توجههم إلى الله تعالى وطلبهم للدار الآخرة، **فإن طلب الدار الآخرة ووجه الله عاقبته أن يوفر الله لهم الدنيا التي يخافون عليها**، أو التي يظنون أنهم إن قضوا أعمارهم في طلب الآخرة ضاعت عليهم الدنيا، وضاع مستقبلهم، وضاع مستقبل أولادهم وانتهى أملهم فيها إذا بالله تعالى يبين لهم أن الأمل الحقيقي إنما هو في وجه الله وما عند الله، وأن العاقبة الحسنة فيما عند الله وفيما أعطى الله سبحانه وتعالى وفيما ينتظر عباد الله من الله جل وعلا.

**وهذا يحتاج إلى الثقة في الله والتوكل عليه وحسن الظن به سبحانه وتعالى وأن يكون قصدهم فيما يأتون ويذرون وجه الله تعالى**، وأن يسيروا بقلبهم وأبدانهم، وأن يأخذوا بنواصيهم إلى الله تعالى، إنهم إن فعلوا ذلك دل على أن الله تعالى قد أحبهم واصطفاهم واجتباهم وأخذهم إلى بابه، فلا يخاف أن يضيع وقتًا أو عمرًا أو مالاً أو جهدًا، ولا يعود عليه بإخلاف من الله تعالى وبركة ومضاعفة أن يضاعف له المال، وأن يبارك له الجهد والوقت، وأن يعطيه فوق الزائد عن حاجته من فضله سبحانه وتعالى، وأنه يوشك أن يكونوا من أوليائه المتقين ومن حزبه المقربين سبحانه وتعالى.

عسى أن يتفكر الناس أن يكونوا من أهل الآخرة كما ذكر الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ ﴿٢١﴾ [الإسراء: ١٩-٢١].

والقصة التالية من القصص القرآني المتعلق بحب الدنيا، **هي قصة صاحب الجنتين في سورة الكهف**، وهي قوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا

﴿ بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف: ٣٢-٣٩] إلى آخر الآيات؛ حيث ختمت بقضية الدنيا مرة أخرى، وهي في قوله سبحانه وتعالى:﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ٱلْمَالُ ﴿٤٦﴾ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف: ٤٥-٤٦].

وبداية القصة أن عظماء قريش ورؤساءها وأصحاب الأموال فيها قد طلبوا من النبي أن يطرد عنه هؤلاء الفقراء الأرقاء الضعفاء المساكين الذين أسلموا معه حتى يفكروا في أن يجلسوا إلى النبي وأن يؤمنوا به؛ فقال له المولى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا ﴾ [الكهف: ٢٨] ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾ [الكهف: ٢٩] ، ثم قال له سبحانه وتعالى بعد أن ذكر عاقبة المتقين اضرب لهؤلاء الذين كل همهم الحياة الدنيا وزينتها ويريدون أن يصرفوا هؤلاء المؤمنين الفقراء الذين أحبوا ربهم وأقبلوا بقلوبهم عليه، اضرب لهم هذا المثال؛ ليروا عاقبة ما هم فيه، **وأن هذه الدنيا لن تنفعهم كما لم تنفع من قبلهم**، وأنهم سرعان ما تنتهي هذه الدنيا التي هم فيها، وعسى كما يقول المؤمن الصالح في هذه القصة أن تنقلب الحال؛ فيصير صاحب المال لا مال له، قد اضمحل ماله أو ذهب، وأن يصير هذا الفقير ذا مال كما قال: ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾ ليبين لهم أن هذه الدنيا ليست دائمة وإنما هي زائلة.

وانظر إلى ترتيب هذه الألفاظ والكلمات الموحية الكريمة: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانا رجلين من بني إسرائيل، وقال غيره من

المفسرين: كانا من أهل مكة ولهما هذه الحدائق في الطائف؛ لأن مكة لم يكن فيها حدائق أو بساتين؛ ﴿ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝ ﴾ والجنتان من هذه الثمار التي هي من أهم الثمار عندهم؛ حيث يتخذونها زبيبًا، وحيث يتفكهون بها في وقتها هي والنخل والزرع، وحيث يتوسعون كما يتوسع أهل الدنيا الآن في مزارعهم وبساتينهم.

يقول بعد ذلك: ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ وتظلم يعني: تنقص فهي لم تنقص من أكلها شيئًا، وكأن أكلها صار حقا معلوما يحرم على أحد أن يأخذ منه شيئًا، فكأنها إذا نقصت من أكلها شيئًا كأنها ظلمت صاحبها ﴿ وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ وكأن هذا الحال قد صار من عند الله تعالى لهذا الرجل حقا له من هاتين الحديقتين، وكأن هذا الحق إذا نقص شيئًا كأنها ظلمته حقه.

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا ﴾ وقوله "جعلنا" ليتذكر صاحب هذه الحدائق والبساتين أن ذلك من الله تعالى وأنه هو الذي جعل له هذه البساتين، **من الذي أعطاه هذه البساتين؟ ومن الذي شق له الأرض؟ ومن الذي أجرى له الماء؟ ومن الذي أنزل له الماء من السماء؟** ومن الذي أنبت هذه الحبات الصغيرة في هذه الأرض فنبتت وأعطت هذا الثمر الكثير الذي قد رأينا ذكر الله له سبحانه وتعالى من الذي فعل ذلك كله؟

وهذا التعبير قد رأينا مثله في قصة قارون في قوله: ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ﴾ لم يؤت نفسه كما ادعى وقال: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ وإنما المعطي له هو الله جل وعلا، هو الذي وهب له ذلك كله فكان حقيقا بالشكر، خليقا بأن يحسن لعباده كما

أحسن إليه، وأن يصرف هذه النعم في مرضاة الله تعالى، وأن يكون التفكر في هذه النعم سببًا لإيمانه بالله وطاعته له جل وعلا، **وإلا فإن هذه النعم التي وصلته من الله تعالى ستكون سبب خراب عليه وسبب وبال له وسبب فناء وزوال**، ستنتهي النعم ويخسف به ويذهب إلى عذاب آخر دائم مستديم عند الله يوم لا ينفع مال ولا بنون.

هل اقتصر ما أعطاه الله تعالى على الجنتين ؟ لا، قال المولى:﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ وعلى قراءة الجمهور: وكان له ثُمُر يعني: وكانت له أموال أخر قد ثمرها يعني: نماها وأكثرها مما أنتجته له هذه الأموال يعني: عنده أموال سائلة وأنعام وحرث، أو حبوب أو غيره من هذه الأموال في الدنيا غير هاتين الحديقتين.

بعد أن عرض الله تعالى قضية الدنيا التي أتته بعدما لم يكن شيئًا، وقضية التوسع فيها وأنه رأى نفسه شيئًا، وأنه رأى نفسه عنده مال يثمره ويستثمره وينميه، وصار عنده هذه الثمار التي يبيعها ويتنزه ويستلذ بالشهوات المنبنية عليها، انتقلت الآيات إلى المحاورة ﴿ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ والمحاورة: المراجعة للكلام بين المتخاطبين.

والذي ينظر في سياق القرآن الكريم يدله هذا السياق أن الرجل المؤمن هذا قد وعظ صاحب الدنيا وذكره بالله، وذكره أن الدنيا ليست دائمة وأنها زائلة، وأن هذه الدنيا لم تكن له ثم أتته، وأن من أعطاه الدنيا يمكن أن يأخذها كما أعطاها، ومعنى ذلك أن تتوجه من المؤمنين موعظة خالصة يعني: **لا يعظ غيره وهو يتمنى أن يكون مثله**، أو لا يعظ غيره وفي نفسه هذا المحرك الذي يحركه لإرادة الدنيا ومحاولة جمعها، أو أنه يعظه في هذه الدنيا وهو يريد له أن يقلل من قيمة الدنيا التي يحبها ، فهذه الموعظه لم تذكر في السياق.

ماذا قال صاحب الدنيا ؟ دعك من هذا ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ دخلنا إذن إلى لغة المال وإلى لغة الأولاد وإلى لغة القوة، وهي اللغة التي يستعملها المؤمنون اليوم عندما تفتح عليهم الدنيا إذا بهم يقول لك: كم تساوي هذه ؟ هذا شيء بسيط خذ هذا المال، لا عليك سأعطيك إياه ! فبعد أن كان لا يملك شيئًا من الدنيا إذا به يقول لك: هذا مبلغ بسيط، وهذه كذا وسأعطيك كذا، وأين هي وأنا أشتريها، وأين هي وأنا أقتنيها، إلى آخر هذه الألفاظ التي تغيرت مع تغير الناس، وارتفعت مع ارتفاع الدنيا **ونسي المرء نفسه ونسي آخرته ونسي لقاء الله تعالى!!**

﴿ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ وأعز نفرا: يعني أعز ولدا؛ لأن الآية قبلها قالت: ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ ﴾ فقابل الولد بالنفر؛ فدل على أنه يقول له: أنا أكثر منك مالاً وأعز ولدًا، فعنده أولاد كثير يمنعونه ويعزونه في هذه الحياة الدنيا، وينصرونه ويقومون دونه،ويدافعون عنه إذا تعرض لشيء، ويقومون بمصالحه، ويرفعون شأنه في هذه الحياة الدنيا، ويتوسعون له في تجارته ويحافظون عليها، **إلى آخر هذه العزة التي يراها ليست في الإيمان، بل في الدنيا الزائلة التي سرعان ما تنتهي**، ولا يبقى شيء إلا الخيبة والخسران كما سنرى في نهاية القصة.

الملاحظ لسياق الآيات القرآنية أن هذا الرجل صاحب المال وهذا الرجل التقي المؤمن ما زالا سائرين حتى دخلا الجنتان كما قال الله تعالى:﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ ﴾ ؛ لأنه لا يمكن أن يدخل الجنتين مرة واحدة، وإنما يدخل الجنة الأولى أولا، ثم يمر منها إلى الثانية؛ فقال القرآن على السياق الواقعي: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ .

بعد أن تكلم هذا الكلام الذي قد امتلأ كبرا وغطرسة وخيلاء وتكبرا وتجبرا بما أعطاه الله بما ليس من نفسه بما أعطاه الله ووهبه لا شك أنه قد ظلم نفسه، ويوشك هذا الظلم لنفسه أن يكون سبب خسف به، وأن يذهب الله تعالى بتلك الأموال كلها.

فدخلا سويا إلى الجنة كأنه ليطلعه على ماله، وليريه ما هو فيه من العز ومن الأبهة، وليريه ما هو فيه من القوة والمنعة، وليريه ما هو فيه من المال والجمع والتكديس في هذه الحياة الدنيا ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ لما رأى الجنة ورأى ثمارها وزُرعها وماءها وما هي فيه من تلك الرونق وهذا المنظر المبهر ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ .

وانظر إلى هذا الكلام؛ ليس هناك ساعة ولا قيامة ولا آخرة ولا شيء، يعني: هو كافر بالله وبالبعث، إنما هو التمتع بالدنيا ! **وذلك عاقبة الدخول في الدنيا الذي يُخشى على أهل الإيمان منه**، أنهم سرعان ما ينسون آخرتهم، وسرعان ما يذهب إيمانهم إذا غرقوا فيها، وإذا وصلوا إلى مستنقعها ووحلها أن ينسوا أن هناك آخرة فيقول: ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾.

ثم انتقل إلى شيء آخر وهو التهكم بصاحبه المؤمن هو يقول: ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦ ﴾ يعني: يتهكم على المؤمن أشد التهكم فهو لا يؤمن بالله بدليل قوله: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى ﴾ فكيف يقول: ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى ﴾ ؟ فهذا تهكم بهذا المؤمن التقي؛ لأنه إذا رجع إلى الله سيجد أفضل منها، مع أنه ليس مؤمنا بذلك ولكنه يتهكم عليه ويسخر منه أنه إذا كان له ذلك في الدنيا فإن كانت هناك آخرة كما تدعي ؛ فسيكون عندي أفضل من ذلك !

بدأ المؤمن الحوار مرة أخرى: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ ﴾ ؟ وهذا الاستفهام كما يقول أهل اللغة استفهام للتعجب والإنكار في نفس الوقت يعني: كيف تكفر بالذي خلقك من تراب ولم تك شيئًا؟ **من الذي خلقك فسواك من نطفة ثم جعلك رجلاً تتكلم هذا الكلام كيف تكفر به؟** وينكر عليه أشد الإنكار أنت أيها الحقير المولود من النطفة وأنت هذا الحقير الذي قد سواك ربك ولم تسو نفسك، ولم تعط نفسك؛ ثم تكفر به؟!

ثم يوبخه ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ بدلاً من أن تقول: ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ ﴾ لأن أن تبيد هذه أبدا في علم الله ومثلك يمكن أن يباد اليوم أو غدا ومع ذلك أنت تراني أنا أقل منك مالا وولدا؟

انظر إلى كلام هذا الرجل الصالح ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ **انظر للثقة في قوة الله وقدرته والثقة في غناه والثقة في عدله سبحانه وتعالى**، وأنه يأخذ المتكبر المتجبر الذي يتوسع في الدنيا وتكون سببًا لنسيانه للقاء الله وسببًا لكفره بالله تعالى، ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ ﴾ ليس المال والولد عند الله تعالى هما السبب في أن يعطيه أو أن يمنعه ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ وجنتك هذه ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الحسبان: يعني الصاعقة الصواعق من السماء ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ ﴾ يعني: تصبح أرضا مَزْلَقَة يعني لا تستقر عليها القدم إن سار عليها المرء زلق عليها يعني: تزحلق عليها لا يستقر عليها شيء صارت أرضا لا نبت فيها، لا خير فيها قد محق منها كل شيء.

﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾ يعني أن يسيخ ماؤها في الأرض لا يخرج إلى السطح وكأن هذا الرجل الصالح كان رجلا ملهما محدثا من محدثي الأمم السابقة يعني: كعمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيرهم أن في الأمم محدثين يعني: يلهمون من الله بما سيحدث، وكأن الله تعالى أطلع هذا الرجل الصالح على ذلك الغيب.

وفعلا ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾ كهذا العدو الذي يحيط بأعدائه لا يفلت منهم أحد ولم يذكر المولى جل وعلا ما الذي حدث له، وإنما أجملها؛ ليتخيل كل امرئ ماذا حدث لهذه الجنات العظيمة والأنهار والثمار والزرع والنخيل.

قال: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ يعني: هلكت هلاكا لا صلاح له، هلكت هلاكا بائدا هلاكا شديدا أباد كل شيء يعني: قد أتلف ماله كله، تُرى المولى سبحانه وتعالى قد أتلف هاتين ودمر هاتين الجنتين فقط؟ لا ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾ يعني: ببستانيه وأمواله حتى أمواله التي قد جمعها غير هذه البساتين لم يبقها له ربه سبحانه وتعالى؛ **أخذ كل ما جمع**، ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ وذلك دليل التحسر على هذه الدنيا التي ألهته عن ربه، والتي كانت سبب نسيانه وغفلته عن آخرته.

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ أعطاه خيرًا منها وإن لم يذكر في سياق الآية؛ لأنه ليس المقصود من هذه الموعظة ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ وقد نزل وفق كلام المؤمن الصالح ذلك الحسبان من السماء فأصبحت ﴿ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

ولم يقل المولى كيف هدمت وكيف دمرت وكيف أزيلت وكيف مسحت وكيف أبيدت وكيف انتهى ماله فيها وفي غيرها كل ذلك لتتخيله أنت طالب الدنيا لتنظر في هذا

الحال **وترى كيف يمكن أن يحدث مثل ذلك لكل أحد يسعى ويطلب الدنيا حتى ينسى بها الآخرة**، من يطلب الدنيا حتى يتكبر بها ويتكلم بها ولتكون سبب علوه في الأرض، ثم بعد ذلك سبب انشغاله عن الله تعالى، وسبب جريه وراء الملذات والشهوات وهذه الآفات والمصائب التي نرى ونسمع تلك الأيام عن طالب الدنيا منها.

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا ﴾ وهذا الفقير المؤمن الصابر أعطاه الله ووسع عليه، وأصبح صاحب الدنيا لا دنيا له يقول: ﴿ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ ﴾ يضرب كفا بكف ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ وهذا التعبير ﴿ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ تعبير قرآني محض قد أتى به القرآن الكريم ليبين الدمار الشامل الذي لا علاج معه، الدمار الشامل الذي يمسح به كل شيء.

﴿ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ أين أصحاب المال الذين ينصرون؟ أين النفر الأعزاء الذين يقفون له؟ كما قال المولى جل وعلا: ﴿ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾، فلم ينتصر بفئة ولا بنفسه.

ننتقل إلى النقطة التالية وهي **كيف علق القرآن على هذه القصص وربطها ببقية المواعظ التي ينبغي أن تصل إلى قلوب المؤمنين.**

نبتدئ هذا الكلام في قوله: ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ هنالك للإشارة للبعيد، ومعناها: في هذا الموضع الذي أحيط فيه بهذا المشرك وبماله وأخذه الله جميعًا، وأصبحت جنته خاوية على عروشها، وهذا تصوير بديع من القرآن

الكريم؛ حيث أحيط بثمر هذا الكافر ودمر الله تعالى حدائقه وبساتينه، وسحب منه كل ما أعطاه سبحانه وتعالى وأزاله من الوجود؛ **فأصبح وحيدا فريدا فلا مال ولا أهل ولا دنيا ولا ثمر ولا شيء**، وصارت الولاية لله وليس لله فقط، ولن الولاية لله الحق.

في هذه المنطقة التي أحيط بالكافر فيها اتضحت تماما أن الولاية لله تعالى، ليست هناك ولاية لأحد ساعتها، أن الولاية أن الولاء إنما هو لله جل وعلا لله الحق وأنه لما عبر بالحق دل على أن كل ولاء ساعتها إنما هو ولاء باطل لا قيمة له، ولا حقيقة له، أو أن كل ولاء ساعتها كان زائلا مع ما زال من هذه الحدائق.

وهذه يتعلمها المؤمنون استكمالا لهذه الآية في قوله: ﴿ **هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا** ﴾ هنالك تعلم المؤمنون أن الولاية لله ليست لأموالهم، وعلموا ساعتها أن الولاية لله ليست لقوتهم، وعلموا أن الولاية لله ليست لمن ينصرهم؛ لأنه لما أحيط بثمره قال تعالى فيها ساعتها لم يجد هذا الكافر من ينصره ﴿ **وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا** ﴿٤٣﴾ ﴾ فلم يجد أولاده الذي قال هو أكثر مالاً وأعز نفرًا لم يجد شيئًا من ذلك لا مالاً ولا نفرًا؛ ليأخذ المؤمنون هذه الموعظة؛ وليتعلموا ألا يسعون للدنيا علوًّا ولا فسادًا، ولا توسعًا وازديادًا منها، ليكون ذلك سببًا لنسيان الآخرة، وسببًا لقعودهم عن الاستعداد للقاء الله، وسببًا للغفلة عن الله تعالى، وسببًا للتقصير في أوامر الله جل وعلا.

الدنيا تكون إذن وبالاً على أصحابها، وعندما يمسح الله تبارك وتعالى ما جمعوها فيها من الحطام الزائل ويعلمون خيبتهم؛ فيقولون: يا ليتنا اتخذنا مع الرسول سبيلاً؛ هؤلاء الذين سعوا فيها ليتوسعوا وليثمروا ثمرتهم كما فعل ذلك الرجل، وليكبروا تجارتهم، وليوسعوا أموالهم، وليزدادوا منها، **كل ذلك نهاهم عنه المولى إذا كان سببًا في**

**غفلتهم عن ربهم، وسببا في بعدهم عن دينهم، وسببًا في نسيانهم للقاء ربهم، وسببًا في أن تكون الدنيا عبئًا عليهم في أن يقعدوا عن السير إلى الله تعالى**، وما كانت الدنيا اليوم إلا كذلك: ما فتحت على أحد إلا وقد نسي آخرته ونسي فقره ومسكنته ونسي ما كان فيه إلا ونسي لقاء الله تعالى، إلا ونسي الاستعداد للقائه جل وعلا، إلا وجفت محبة الله تعالى من قلبه، وقلت الأشواق في قلبه للقاء ربه، إلا وظهرت عليه تلك الحالة من التمتع بالشهوات والتوسع في الملذات، وليس له همّ إلا أن يتوسع فيها، وأن يأخذ ملذات الدنيا كلها قبل أن يموت، لا أن يأخذ ملذات الآخرة ويستصحبها إلى الله تعالى.

كل همه عندما يجتمع له شيء من الدنيا: **كيف يستمتع به؟ كيف يتلذذ به؟ كيف يأخذ منه حظه كاملا؟** وأن يستكمل هذا الحظ، الله جل وعلا لم يقل لنبيه لا تأخذ حظك من الدنيا، بل لا يمدن عينيه، ولا يتطلع ولا يتشوف ولا يتشوق ولا ينتظر أن يكون له ذلك الحظّ وليعلم كما قال:﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ [طه: ١٣١] ما رزقه الله تعالى في الدنيا والآخرة هو الخير الباقي له كما تقول الآية الكريمة:﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الكهف: ٤٤].

علمت إذن كيف لا يكون لك همّ في أن تنظر لزهرة الدنيا وزينتها، وأن تعلم أن رزق الله تعالى خير وأبقى في الدنيا والآخرة ما رزقك الله تعالى به في الدنيا وما رزقك به في الآخرة هو الباقي الدائم، **وأن تعلم أن التوسع في الدنيا مصيره إلى نسيان الله تعالى وطرد الآخرة من القلب**، مصيره إلى عدم الاستعداد لهذا اللقاء والتجهز والسير إلى الله تعالى، وأن تعلم أن الله تعالى في نهاية المطاف لا يضيع أجر من أحسن عملا.

ثم عقب بهذا المعنى الذي ينبغي أن يفهمه المؤمنون: ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ **خرجت من قلبك إذن كل ولاء إلا الولاء لله جل وعلا**، ليس الولاء للدنيا وزينتها، وليس الولاء لتحصيلها والارتفاع بها، وليس الولاء لجمعها والتوسع فيها، بل الولاية لله؛ لأن كل ولاء لغيره ليس حقا بل هو باطل، ليس دائما بل هو زائل.

و"خيرٌ" هنا في هذا السياق إما أنها على معنى التفضيل يعني: أنها بمعنى أن خير بمعنى أَخْيَر، يعني: أن ثواب الله تعالى وعاقبة هذا الثواب هي أفضل وأخير من ثواب الدنيا وعاقبته، وأن ثواب الدنيا وعاقبته إلى ضر وزوال، وأن الخير إنما هو في ثواب الله، وعاقبة هذا الثواب: أنك تحصل ثواب الله تعالى وتأمن في عاقبة هذا الثواب، أما ثواب الدنيا فزائل وينتهي إلى الضر وأن عاقبة ذلك العمل الذي تنتظر به أن ترتفع في الدنيا أن تكون في بطن الأرض مخسوفا بك كما ذكر الله تعالى.

والتفسير الثاني الذي ينبغي كذلك أن يتعلمه المؤمنون أن "خيرٌ" يعني: ثواب الله خير وعاقبته خير بمعنى الخير المضادّ للشرّ يعني: ثواب الله وعاقبة هذا الثواب هو الخير وبالتالي أن ثواب الدنيا وعاقبته إنما هو شرّ لا خير فيه إن حصله المرء كما ذكر الله جل وعلا: ﴿ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ هذا المتاع الذي يتمتعه في الدنيا إنما هو قليل وإنما هو متاع زائل لا يتمتع المرء فيه التمتع الدائم الباقي الذي لا شر فيه، والذي عاقبته مأمونة عند الله تعالى، إذا تيقنت ذلك أيها المسكين كان كل همك إذن أن تحصل ثواب الله، وأن تحصل عاقبة هذا الثواب.

لذلك قال الله تعالى في الآية التي بعدها: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ

﴿كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝٤٥﴾ [الكهف: ٤٥] وكانت تأنيبا للمشركين، عندما رأوا هنالك ما حدث لهم وما وقع بهم وما أحاط بثمرهم وأموالهم، وما تدمر به ذلك كله أو وما دُمِّر به ذلك كله فعلموا أن الثواب الحق من عند الله، وأن العاقبة الخير هي عاقبة ثواب الله سبحانه وتعالى، وعلموا في نفس الوقت أن الشرّ في غير ما عند الله تعالى، هذه الأولى.

ثم قال موجها الموعظة للمؤمنين: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ۝٤٦﴾ [الكهف: ٤٦] وقد قدم المال على البنين؛ لأنه هو المتبادر إلى أذهان المؤمنين: فإذا كان عنده بنين وعنده كذا وكذا وليس عنده مال تجده حزين لفقده؛ لذلك قدم المال؛ لأنه أول ما يخطر على بال المرء من أن له شيئًا في الدنيا هو المال ليس الولد، لا يقال له عنده ولد فهو غني، أو عنده ولد فهو قد بلغ من الدنيا كذا وكذا، أما أن يقال: عنده مال وحصل وبنى وتوسع وكذا يقال: هو غني.

﴿زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ كأنه يقول: إن زينة الدنيا متفرعة عن ذلك؛ لأن المرء إذا لم يحصل مالاً لم يحصل متاعًا ولم يحصل بنايات ومركوبات ومزارع وخيلاً ونساء وكذا وكذا، وإذا لم يحصل ولدًا فمن الذي يدفع عنه ومن الذي يقوم بمصالحه، ومن الذي يخاف على أمواله، ومن الذي يثمرها له، ومن الذي يعتني بشئونه؟ فكأنه لم يحصل شيئًا؛ لذلك قال: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾.

**والزينة: ما تتجمل به حياة المرء حتى ينظر الناس إليه، وحتى يتمنى الناس ما هو فيه هذه هي الزينة**، فيراه الناس راكبًا كذا، ويشتري كذا وينظر الناس إلى ماله وإلى ولده وإلى مركوبه وإلى حدائقه وإلى بساتينه وإلى ما حصل من الزائل في هذه الحياة الدنيا؛ فكل ما يجعل هذه الحياة جميلا وذا منظر يلتفت إليه وينظر له ويتمنى أن يكون مثله حينئذ

يسمى زينة، ولكن انظر إلى هذا السياق القرآني ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

وهي التي يتعلمها المرء، إن كان لك أمل حينئذ في أن المال والبنون هو الذي يحييك، وهو الذي يؤمن مستقبلك، وهو الذي يوسع مالك، وهو الذي يجعلك آمنا مطمئنا، وأنك قد وضعت أملك في هذه الحياة الدنيا في مالك وأولادك لتحصل به ما تشاء الله تعالى قال: **ذلك فانٍ وذلك زائل وأن الباقيات الصالحات هي خير ثوابًا وخير أملاً**، هي خير في تحصيل ذلك الثواب عند الله وذلك الأمل الذي ترجوه من الله تعالى؛ فإن كان أملك في الله تعالى فهو خير الأمل، **وإن كان أملك فيما عنده فقد أملت في الباقي الذي لا يزول في الخالد الذي لا يفنى**، وإن كان أملك في ثوابه سبحانه وتعالى فثوابه تحصله في الدنيا قبل الآخرة، فأين عقلك حينئذ أن يكون أملك في الزائل الفاني المضمحلّ الذي هو شرّ وإن حصلته يوشك أن تفسد به من هذا الثواب والأمل الباقي؟

والله تعالى قال فيه في هذه الآية بالذات: ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ ولم يقل: والصالحات الباقيات مع أن القرآن الكريم عبَّر في كل تعبيراته بالصالحات قبل الباقيات؛ ولأنها ما تكون باقيات إلا لأنها صالحات، لا تكون هذه باقيات إلا لكونها صالحة؛ لذلك كان السياق يقول: والصالحات الباقيات، وإنما عبر بالباقيات ليقول: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ بائد زائل، وأما الباقيات على الحقيقة هي الصالحات الأعمال عند الله تعالى.

فعندما يقول: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ﴾ فكأنه يقول: هذه ليست باقيات، إنما الباقيات هي الصالحات التي تقدمها لله تعالى، ويقول النبي ضاربا

المثل؛ حتى يبين لأهل الإيمان أن ما يحتقرون من أعمالهم هو ذلك الصالحات الباقيات قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**الباقيات الصالحات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**»[1] هي الباقيات الصالحات التي تبقى للمرء صالحة عند الله تزيد لهم ثوابه في الدنيا وتزيد لهم ثوابه في الآخرة وهي الباقية له هنا وهناك يأخذ بها أجره وثوابه، وترتفع بها درجته وتعلو بها مرتبته عند ربه.

وكأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: **إن ما تحقرون من أعمال الدين والإيمان خير من المال والبنون وزينة الدنيا وزهرتها، خير مما تحصلون فيها**؛ لذلك قال: «ركعتان مما تحقرون من أعمالكم خير من الدنيا وما فيها»[2] ركعتان لهؤلاء الذين يضيعون أوقاتهم وأعمارهم في تحصيل الزائل الفاني ليعلموا أنهم لو قالوا: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، أو قاموا فصلوا ركعتين لكان ذلك خيرًا لهم وأبقى عند الله تعالى؛ لذلك كان سياق هذه الآية بعد أن أشار إليهم بقوله: ﴿ **وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾** ﴾ [الكهف: ٤٥].

وإذا لم ينفعكم ذلك أيها المؤمنون المتقون ولم تؤثر فيكم الموعظة ولم تأخذ بأعناقكم وقلوبكم إلى الله تعالى ولم تستعدل في قلوبكم التوكل واليقين والرضا

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٧٥ ، رقم ١١٧٣١) ، وأبو يعلى (٢/٥٢٤ ، رقم ١٣٨٤) . قال الهيثمي (١٠/٨٧) : إسنادهما

حسن، وصححه ابن حبان (٣/١٢١ ، رقم ٨٤٠) ، والحاكم (١/٦٩٤ ، رقم ١٨٨٩) والبيهقي في شعب الإيمان (١/٤٢٥ رقم ٦٠٥) . ولفظه (استكثرْ من الباقياتِ الصالحاتِ: التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ).

(٢) رواه مسلم (٧٢٥)، ولفظه (ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها).

واستشعار حكمة الله تعالى فيما يعطي ويمنع، قال المولى لمن لا يعجبه ذلك: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾ [الكهف: ٤٧-٤٨] جاءتكم الشدة وجاءكم الترهيب والتذكير باليوم الآخر ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٨-٤٩].

## رابعًا: أحوال القلوب مع الدنيا

وبعد رمضان....الناس منقسمون في هذا الأمر إلى ثلاثة أقسام:

**الأول:** قسم أمله في الدنيا طويل، منهمك في الدنيا، غافل عن الآخرة، لا يذكر الموت، ولا يذكر الرحيل إلى الله تعالى، ويكره ذكر الموت، وذكر الرحيل إليه سبحانه وتعالى، لانغماسه في الدنيا، وانشغاله بها، وتوسعه في جمعها وضمها أو بانشغاله الكبير بالدنيا ونسيانه للآخرة، وغفلته عن الانتقال إلى الله تعالى، وهذا يسميه العلماء المنهمك في الدنيا. الذي يغفل عن ذكر الموت، وعن لقاء الله تعالى، وفي نفس الوقت هو يكره الموت ويكره سيرته ويكره ذكره ؛ لأن هذا الموت سيفرق بينه وبين الدنيا التي يحبها وبين والأهل والمال والولد والتوسع فيها، وبين ما يأمل أن يكون فيها وأن يجمع فيها وأن يكون مكوشًا فيها كما يقولون، فهذا ذكر الموت عليه صعب، وذكر انتقاله إلى الله تعالى أصعب، وهذا ممن يكره لقاء الله تعالى، ومن يكره لقاء الله تعالى فالله تعالى يكره لقاءه كذلك.

**والثاني: فهو التائب إلى الله تعالى**، والتائب إلى الله تعالى يكره ذكر الموت؛ لا لأنه يكره لقاء الله تعالى لكنه لا يحب أن يلقى الله تعالى على الحال التي هو عليها، وإنما يحاول أن يستعد، وأن يتم توبته، وأن يكمل تمام الاستعداد حتى إذا لاقى حبيبه سبحانه وتعالى، يلاقيه على الحال الحسنة التي يود بأن يلقى الله تعالى عليها.

وهذا يخالف المنهمك في الدنيا في أنه يحب لقاء الله ولكنه يكره أن يلاقيه على هذه الحال السيئة، وعلامة هذا التائب المقبل المحب للقاء الله تعالى التي ينبغي أن تنظر في نفسك فيها، وأن تؤهل نفسك إلى أحسن منها، كمال الاستعداد للقاء الله تعالى، ويجتهد في تحصيل ما يحب الله تعالى وتمام تحصيل الزاد الذي يوصله إلى الله جل وعلا، وأنه منشغل بأن يكون على أحسن حال يلقى بها ربه جل وعلا، وإلا التحق بالمنهمك، التحق بهذا الغافل الذي يكره لقاء الله، التحق بصاحب الدنيا الذي يكره الموت والذي يريد أن يمكث فيها ويريد في نفس الوقت أن يحصل الدنيا.

فإن لم يكن حال التائب الذي يقول : أنا قد تبت وخرجت من رمضان على التوبة والعمل الصالح والاستعداد للقاء الله تعالى والاستقامة على أوامره جل وعلا، وأنه يسارع إلى الخير ويسابق وينافس فيه حتى يصل إلى أن يكون بمقربة من الله تعالى، فإنه يلتحق بهذا المنهمك.

**ومحبة الدنيا ومحبة الله تعالى كالماء والهواء في إناء واحد، لا يجتمعان، إذا دخل أحدهما خرج الآخر**؛ لأنه لا يمكن أن يقول القائل : أنا أحب الله تعالى، وهو يحب الدنيا وهي عزيزة عليه ويخاف من فقدها، وحريص على جمعها، ويحزن إذا نقصت عنده أو فنيت، أو يحزن إن لم يجد له فيها حظًّا ونصيبًا، وهو حزين على عدم تحصيلها، هذه الدنيا لا تجتمع وحب الله تعالى في قلب العبد ؛ لأنه إذا دخل حب الله تعالى فإن الله تعالى يُحقر

الدنيا في نظر المؤمنين المتقين، ويبين لهم أنها لعب ولهو: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ (الحديد ٢٠) والزرع والحرث والسيارات والبنايات والأموال والمناظر التي تعلمون، لذلك لا يجتمع ذلك، يعني حب الله تعالى وحب الدنيا في قلب المؤمن.

**وأما الأخير**: فهم القليل الشكور، فإن هؤلاء يحبون لقاء الله تعالى ؛ لأن النبي ﷺ قال : «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه »[1]؛ لأنه يريد أن يخرج من دار العسير إلى جوار رب العالمين سبحانه وتعالى، لا يريد إلا مجاورة ربه سبحانه وتعالى .

وهذه الدرجة العالية التي لا يفكر فيها أحد إنما كل من يفكر اليوم يفكر فى ماذا سيعمل غدًا وماذا سيكسب ومتى سيسافر وأين سيفعل وماذا سيقدم،

**ولم يقل يومًا ما.... غداً سأذهب إلى الله...**

ماذا قدّم وماذا أخّر وبماذا يلاقي الله تعالى وعلى ماذا سيحاسبه ربه تعالى؟

**والمؤمن التقي له حالان فقط: حال التائب وحال المحب للقاء الله تعالى**، وحال المحب للقاء الله تعالى حال عالٍ، ترى نفسك فيه قد تهيّأت له وانتظرته وأنت تدعو الله تعالى أن تكون على هذا الحال الحسن؟

أم أنك ما زلت هذا المنهمك الذي قد غفل عن الآخرة وغفل عن لقاء الله تعالى، وفي نفس الوقت يكره الموت ويكره ذكره، وإن ذكره ليستعد له، يقول : عندما تنتهي هذه السفرة، عندما يرجع من هذه السفرة، عندما تنتهي هذه الشغلة، عندما

(١) رواه البخاري (٦٥٠٧) كتاب الرقاق ، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومسلم (١٥٧) كتاب الذكر والدعاء ، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه .

يتزوج، عندما يبني، عندما ينتهي، عندما يفعل، وكل ذلك الأمل الطويل ثم يفاجئه الموت بغتة فإذا به يعض على أصابع الندم .

**لذلك** هذه الحال الذي ينبغي أن تفكر فيه، وهذا الحال يدفع المرء إلى التجافي عن دار الغرور والميل إلى دار البقاء وهذا هو حال المؤمنين المتقين، عندما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «**مالي وللدنيا، إنما أنا كراكب استظل في ظل شجرة ثم راح وتركها**».[1] أهل الدنيا لا يبالون بهذا الكلام ؛ لأن أهل الدنيا قد انغمسوا وانهمكوا فيها سواء كانوا يحبونها أو يريدون تحصيلها أو يخافون على فقدها، ينبغي أن يعلموا أن المقصود من هذا الكلام أنه **من أراد الدنيا... فطريقه الآخرة... ومن أراد الآخرة ستحصل له الدنيا والآخرة.**

فإذا سلكت طريق الله أيها الإنسان الخائف على الدنيا، إذا سلكت طريق الله تعالى فإن الدنيا ستأتيك راغمة، وهذا هو قوله ﷺ : «**من أصبح وهمه الآخرة جعل الله الإيمان في قلبه، وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة**»[2].

**أيها المسكين الحزين**... لن تفوتك الدنيا التى تخاف من ضياعها أو تحزن على عدم تحصيلها، ولكن كما قال الله تعالى: ﴿ **مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ** ﴾ (النساء ١٣٤) .

**فثواب الدنيا والآخرة طريقه المولى سبحانه وتعالى....**

**طريقه محبة الله جل وعلا....**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢١٠٨٠) والترمذي في سننه (٢٤٦٥) وقوى الحافظ العراقي إسناده في تخريج الإحياء (٤/٢٧١).

**فتأتيك الدنيا التي تبكي عليها....**

تأتيك راغمة.....

فلن تموت نفس حتى تستوفي أقصى رزقها وأجلها، وما عليك إلا أن تأخذ بأسباب الآخرة، وتأخذ بأسباب الدنيا الصحيحة، لتحصل الدنيا والآخرة.



## خامسًا: المسارعة إلى العمل الصالح

وهي الحال التي ينبغي أن ينظر فيها المؤمنون المتقون بعد رمضان وبعد الأعمال الصالحة وقبل أن ينتقلوا إلى أيام البر والإحسان في موسم الحج، أن يتفكروا في هذه المسألة المهمة والتي حث النبي ﷺ المؤمنين عليها، وهي المسارعة والمبادرة إلى العمل الصالح.

والمبادرة يعني **ألا يضيع المرء من وقته شيئًا إلا وهو على عمل صالح** يبادر فيه ملك الموت كما يقال، ومعنى الكلام كما قال ﷺ : «**بادروا بالأعمال الصالحة ستًا**»[1]... يعني بادروا بالأعمال قبل أن تقع الفتن التي هي كقطع الليل المظالم « يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرًا، ويصبح كافرًا ويمسي مؤمنًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا»[2]، شيء زائل من الدنيا.

**والحديث يبين هذا المعنى وهو: أنه لابد أن تبادر بالعمل الصالح لأنك لا تملك قلبك أيها المسكين** أن تصبح عاصيا وأن تمسي مؤمنًا، وأن تصبح فاسقًا وتمسي مؤمنا، من

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٠٦) كتاب الزهد، باب ما جاء في المبادرة بالعمل، وقال : حديث حسن.

(٢) رواه مسلم (١١٨) كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن .

الذي يمسك قلبه، ومن الذي يغلقه على الإيمان، لذلك قال ﷺ بادر بهذه الأعمال، يخشى أن يحدث لك ذلك، وأنت مطمئن إلى أنك مؤمن، وأنك إن شاء الله ستصلي، إن شاء الله ستحضر رمضان القادم، وإن شاء الله ستفعل، وإن شاء الله ستفعل، وهذه خيبة الأمل كما ذكرنا التي أشير إليها في الحديث السابق : «**صل صلاة مودع**» (١)، ما كان يقول ذلك ﷺ إلا لعلمه بهذا المعنى.

والمعنى الثاني يقول : « بادروا بالأعمال الصالحة ستا، هل تنتظرون إلا غنًى مطغيًا، أو فقرًا منسيًا أو هرمًا مفندًا أو موتًا مجهزًا، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمر » (٢)، والمعنى فيما يقول ﷺ : **من الذى يدريك أيها الفقير إذا أغتنيت أن تكون على طريق الإيمان ؟ وما يدريك أيها الغني إذا افتقرت أن تكون على الإيمان لا على التشكك والبعد والاعتراض على الله تعالى، أوأن يغنيك فتطغى فتنسى؟** وتنسى آخرتك وتنسى دينك وتشتغل بالدنيا وهي الحال السيئة السائدة اليوم.

**أو أن يأتيك المرض فيخرجك عما كنت فيه من الأعمال الصالحة**، أو أن يدركك الكبر فلا تتمكن من العمل الصالح، أو الدجال أو الساعة ؟ يعني كأنه يقول يمكن أن تأتيك فتن في خاصة نفسك أو في عامة الناس تكون سببا في أن تخرج عن مفهوم الإيمان وقضاء العبادة والتقوى والعبادة والرجوع إلى الله تعالى أن تبعدك عن ضوء الله تعالى.

ومن أنت أيها المسكين الفقير ...كلما أتتك شهوة من الشهوات أضاعت عليك عبادة من عباداتك، وقربة من قرباتك، فلا شك من بدايتها إذا كنت في الشهوة الصغيرة

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢٢٩٨٧) وابن ماجه في سننه (٤١٧١) وحسنه الشيخ الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٣٣٨١) .

(٢) سبق تخريجه.

أنت ممتحن فيها فقد رسبت فما بالك بالشدائد العظيمة أو الكبيرة بعض الشيء، وأنت ترى الراسبين في هذه الامتحانات إلى الله تعالى لذلك قال : «**بادروا بالأعمال الصالحة**»[1]، وقال ﷺ : «**اغتنموا خمسًا قبل خمس : اغتنم شبابك قبل هرمك، واغتنم صحتك قبل مرضك، وفراغك قبل شغلك، وصحتك قبل مرضك، وحياتك قبل موتك**» [2].

النبي ﷺ يبين هذا المعنى في اعتراضك على الشيطان، وهو أنك مطالب بأن ترى أن هذه الأعمال وهذه الأنفاس التي تتنفسها اليوم وهذه الأوقات إنما هي عمرك الذي أنت مسئول عنه، فتغتنم ذلك كله قبل أن يحال بينك وبين العمل الصالح، قبل أن يحال بينك وبين التوبة، قبل أن يحال بينك وبين القرآن والذكر، أو أن يحال بينك وبين المسجد والعبادة، أو أن يحال بينك وبين بقية أعمال الإيمان، لذلك أمر ﷺ بالمبادرة والمسارعة واغتنام الوقت لأنه لا يمكن لأحد أن يفعل ذلك إلا أن يضيع عمره فجأة، وإذا به يرى نفسه فجأة أمام ملك الموت، يقول: ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ (المؤمنون ٩٩-١٠٠).

كان النبي ﷺ في عبادته لله تعالى وأصحابه من بعده رضى الله عنهم كابن عمر وغيره لا ينامون من الليل إلا قليلاً كما سماهم العلماء رهبان الليل، كان ﷺ ينام ثم يستيقظ فيتوضأ فيصلي ثم يغفو إغفاءة ثم يقوم فيتوضأ فيصلي ثم يغفو إغفاءة ثم يقوم فيتوضأ فيصلي صلى الله عليه وآله وسلم ليله أجمع، وكان كثير من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان على هذه الحال يخافون أن يأخذوا فيبادروا أعمالهم ويغتنموا فرصة

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أورده البغوي في شرح السنة (٢٧٧/٧) ، وحسنه الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (٢٠٤/٥) وصححه – مع إرساله – الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٢٣٩/١١) .

حياتهم حتى إنه قد بلغ عنهم قصص صحيحة في النهاية مَن هذه الأعمال الصالحة، حتى قيل عن بعضهم : لو جاءه ملك الموت لم يجد مزيدا من العمل الصالح، لو قيل : ملك الموت واقف على الباب، لم يكن عنده المزيد يقدمه من الأعمال الصالحة .

**حتى في أكلهم وشربهم ودنياهم** كانوا يقولون : بين أن يأكل طعامه وأن يتلذذ بهذا الطعام وما تلذذ به قال : بين الفتيت وبين مضغ الطعام خمسون آية، يعني كان يأكل أكله فتيتا يعني يسفه سفا لا يمضغه يقول : بين الفتيت وبين المضغ قدر خمسين آية، يعني يظل يمضغ ويأكل ويضع ... وكذا وكذا وكذا دنيا طويلة.

وكما ذكرنا في قصة عمير بن الحمام رضى الله عنه في غزوة بدر لما قال للنبى ﷺ : لو مت ؟ فقال : دخلت الجنة. فقال عمير: أنا بيني وبين الجنة إلا هذه التمرات التي آكلها فألقاها بين يديه يقول: بخ بخ ، ثم قاتل حتى قتل، ليس بينه وبين الجنة إلا أن يأكل هذه التمرات فألقاها وهكذا. قال: لا حاجة إلى أن يدع نفسه على هذا الحال الذي يرى.

## سادسًا : التعلق بالله والشوق إلى رؤية بيته

إذا كان قد ذهب رمضان فإن المؤمنين متعلقون بربهم، وإذا كانت قد أتت أيام الحج فإنهم أشد تعلقًا بالله تعالى؛ لأن زيارة البيت إنما هي انتظار لزيارة رب البيت ﷻ والدخول عليه في الموعد المضروب يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وهذا هو مجال محبتهم ومجال سعيهم ومجال بذلهم .. أن يهيئوا أنفسهم لأن يزوروا بيت ربهم استعدادًا لأن يَقبلهم في هؤلاء الزائرين لله تعالى يوم يقوم الأشهاد.

وهذه الحالة الثالثة أيضًا مما يُظهر محبة المؤمنين لله تعالى من ناحية، ومن ناحية ثانية **يظهرون شوقهم إلى موسم جديد من مواسم المغفرة** قد وصله الله تعالى لهم، رحمةً بهم

بعد رمضان أن تستمر رحماتُ الله تعالى النازلة إليهم وبركاته ﷻ ، ألا يزال بابه مفتوحًا لهؤلاء ليدخلوا إليه طلبًا للمغفرة طلبًا للرحمة طلبًا لرؤية الرب كما ذكر النبي ﷺ: «أَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَاءِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ»[1]، ذلك هدفهم وتلك أدعيتهم التي يدعون الله تعالى أن يبلغهم إياها أو يقبلها منهم ﷻ فيُيَسِّر لهم.

**تُرَى هؤلاء الذين لا شوق لهم ولا حنين لهم** لأن يَرَوا بيت ربهم، ويدخلوه ويزوره، وأن يَقْفُوا آثار هؤلاء الأنبياء قبلهم ويطوفوا ويصلوا ويسعَوا وأن يذهبوا إلى مِنًى وعرفات وأن يقوموا مقام الأنبياء، ترى هؤلاء ينتظرون أن يفتح الله تعالى عليهم بزيارة بيته وهم ليس عندهم حنين لذلك ولا شوق إليه ولا تَطَلُّع له، ولا يترقبون شيئًا يبذلونه لله تعالى من عمل صالح أو سعي صحيح يَصِلون به إلى بيت ربهم !

هؤلاء المشتاقون المحبون الذين يأنسون إلى ربهم ويميلون إليه لو تحقق لهم ذلك الشوق وذلك الحنين لَحَمَلهم الربُّ دون أن يتوفر لذلك الأسباب المادية فيما يرون.

**فإذا رأوا أنه قد قطع عليهم السبيل إلى الله تعالى، من التأشيرةُ والمالُ** وكذا وكذا من الوصول إلى الله - جل وعلا - فإن الشوق يحملهم وإن الله يُيَسِّر لهم ﷻ وإن الله تعالى يأخذهم فيروا أنفسهم فجأةً في بيته لم يبذلوا له مالًا ولم يبذلوا له شيئًا ... كل ذلك قد أزال أسبابه عنهم ﷻ ويسَّره لهم وشقَّ لهم الطريق إليه لأنهم هم المحبون المشتاقون إلى

[1] رواه بنحوه النسائي في الصغرى (١٢٩٠) وأحمد (١٧٩٥٤).

ربهم المتطلِّعون إلى زيارة بيته المتطلعون إلى رؤية الله تعالى كما ذكر النبي ﷺ: «... **وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَاءِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ**»[1].

عندما تضطرب قلوب هؤلاء يحملهم ربهم وعندما تشتعل نيران الشوق في أفئدتهم وعندما لا يأنسون إلا بربهم ولا يتطلعون إلا إليه، فيحملهم؛ أما أن يجلسوا هكذا لا شوق لهم ويظنون أنهم مقطوعون وأنهم لا يمكن أن يصلوا إلى بيت ربهم!

**كم من مشتاق قد حَنَّ إلى هذا البيت وأوصله ربُّه إليه عندما لم يجد سببًا يكون هو الموصِّل له إلى بيت الله تعالى**، جَلَسَ حزينًا على حاله .. باكيًا على نفسه .. يَوَدُّ أن يُحمل إلى الله تعالى .. على أي بَذْلٍ .. وعلى أي خِدمةٍ يَعْمَلُها .. إذَا بالله تعالى قد وَفَّرَ له طريقًا ويَسَّر له سبيلًا وحَمَله على أجنحةِ الرضا إلى الله تعالى.

هذا الحال إذًا الذي ينبغي أن يكون مَثَار نَظَرِ المؤمنين اليوم: **محبتهم، ثم شوقهم والتفاتهم إلى رمضان، ثم تطلُّعهم إلى رؤية رب البيت**، وأن يكون عندهم ذلك الحنين الذي ذكر الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ (البقرة: ١٢٥) و﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ يعني: يذهبون إلى البيت ويَثُوبُون إليه ثم لا يظنون أنهم قد قَضَوْا وَطَرَهم منه، لم يقضوا أملَهم في هذا الحال، وإنما ذهبوا إلى البيت ورجعوا وازداد حنينُهم، إلى أن يعودوا إلى بيت ربهم ﷻ مرةً أخرى ويذهبون ويعودون، ولا يزال الحنين ولا يزال الشوق هو الغالب عليهم ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾.

**إن ذلك الاجتهاد يبعث الحنين والشوق إلى الله تعالى ليؤهلهم إلى أن يُحققوا تلك الزيارة لبيت ربهم**، حتى إذا لم يحققوا هذه الزيارة لبيت الله تعالى فإنهم يأتون في العشر

---

[1] سبق تخريجه.

الأوائل من ذي الحجة ويدخلون عرفات، لم يذهبوا إلى البيت ولكن همتهم وشوقهم وحنينهم ما زال موجودًا، إذًا بالله تعالى يغفر لهم في عرفات ذنوب سنتهم التي هم فيها وذنوب السنة الآتية[1]، فيخرجون كذلك مغفورًا لهم، يخرجون وقد عمَّهم العيدُ برحمة الله تعالى وبركاته بسبب تلك المغفرة التي يُهَيِّئُها لهؤلاء المستعدِّين في عرفات.

فإن استعدوا لها وذهبوا فوقفوا الموقف في عرفات أفاضوا مغفورًا لهم، **وإن استعدوا ومُنعوا** كما جاء في الحديث: «إِنَّ فِي الْمَدِينَةِ لَأَقْوَامًا مَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ، شَارَكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ »[2] يعني: أخذوا ثواب الجهاد الذي جاهد فيه هؤلاء الذين صحبوا النبي ﷺ وهم قاعدون في المدينة لم يسيروا مَسِيرًا ولم يقطعوا واديًا إلا كانوا معهم، إلا قطعوا ذلك المسير وذلك الوادي .. **قطعوه بهمتهم .. قطعوه بشوقهم وحنينهم إلى ذلك البذل وذلك الجهد وذلك الجهاد**، إذا بالله تعالى يُعوِضهم عن ذلك فيُثيبهم ﷻ ثواب هؤلاء المجاهدين الذين جاهدوا وصحِبوا النبي ﷺ.

فهؤلاء وقفوا في عرفات وأفاضوا مغفورًا لهم وهؤلاء في أَمْصارهم سعَوْا بهمتهم وجهدهم وبذلِهم فغربت شمسُ عرفات بذنوبهم وسيئاتهم وأوزارهم ، ليصبحوا وقد عيَّدوا بسبب هذه المغفرة التي أحاطهم الله تعالى بها والتي منحهم المولى - جل وعلا - إياها. فهذه أيام الحنين والشوق إلى المحبة وإلى زيارة رب البيت ﷻ.

[1] رواه مسلم (١٩٨٤) وأحمد (٢١٩٤٧) والنسائي(٢٧٧٤).

[2] رواه البخاري (٢٦٤١) وأبو داود (٢١٥١) وابن ماجه (٢٧٥٧) وأحمد (١١٧٩٠).

**الفصل الخامس:**

# الاستعانة بالله والتقوي به

## الفصل الخامس : الاستعانة بالله والتقوي به سبحانه

وفي النهاية وبعد أن ساق الله لك الموعظة هل تجد في نفسك حزناً على ما فات من فراق أوقات الطاعة والأيام الشريفة في الإقبال على الله تعالى والمحبة لله جل وعلا ؟ وكيف أنك فرطت في محبته وتقللت من عبادته ، لم يحزنك ذهاب حلاوة الإيمان والطاعة التي كنت فيها ؟ وهو ينتظر مجيئك ورجوعك إن تقربت إليه شبرا تقرب إليك ذراعًا وأنت في هذا التكاسل والتباعد، تحب الكسل والنوم والبعد والجفاء بينك وبينه وتقدم ذلك كله على إقبالك عليه ومحبتك له وعلى شعورك بحلاوة الطاعة والإيمان والإقبال والتعلق والطمأنينة والثقة والإنابة والتوكل وحسن الرجاء فيه تعالى، كيف تقدم هذا الزائل ؟

**ستنام نومًا طويلاً في قبرك**، فلماذا تتكاسل وتنام من يومك هذا، وإذا ما أتعبت نفسك شيئا في الدنيا أرحتها في الآخرة فكيف تتعجل الراحة الزائلة على الراحة الدائمة التي أعدها الله تعالى لعباده المتقين ؟ وماذا يفعل المرء بعد أن رأى حلاوة الإيمان ثم وجد في قلبه هذا الجفاء وهذا البعد ولم يعد بعد ذلك بهذه الحلاوة، ولم يعد تنجع فيه العبرة التي يراها ويسمعها ؟

وإذا لم تستشعر ذلك فماذا نفعل في هذه الحالة السيئة التي صرنا إليها ؟

**وكيف تتخلص من أخذ أمورك بهذه الهمة الضعيفة، وهذه العزيمة الواهية فعند هبوب أول ريح من ريح الشيطان عليك تنسف عزيمتك وتضعف إرادتك؟**

لن تستطيع أن تقوم بهذه الأعمال من أعمال القلب وأعمال الجوارح، إلا أن تكون لك همة عالية تنافي الكسل والركون إلى الدنيا، وتوجد بها العزم والحزم والإقبال

والمسارعة وهذه القوة التي تستعين بها على قطع العلائق والعوائق التي تعترضك كائنًا من كانت.

**فهذه الهمة وتلك العزيمة مرتبطة بقوة الله سبحانه وتعالى** وأنك صرت متقويا به سبحانه وتعالى، صرت بمدده تعيش وتمشي، وبه تكافح وتناضل وبه تجاهد، لا بنفسك الضعيفة الأمارة بالسوء، وإنما بالله تعالى فإن صارت قوتك بالله تبارك وتعالى كانت قوة عظيمة يمكن أن تدافع بها، وأن تجاهد بها، وأن تري ربك بها ما تصنع أما أن ترتكن إلى نفسك الضعيفة فهذه النتيجة التي توصلنا إليها..

**إن ارتكن المرء إلى هذه الهمة الضعيفة وتلك العزيمة المنحلة، فلن يستطيع أن يتقدم شيئا** وإن تقدم رجع مرة أخرى، فلا بد في هذه الحال أن يتضرع إلى ربه سبحانه وتعالى أن يقوي همته، وأن يتململ بين يديه سبحانه وتعالى أن يقوي عزيمته وأن يمده بمدده وأن يأخذ بيديه وناصيته وكله إليه سبحانه وتعالى، وأن يجعل همه همًّا واحدًا وأن يعينه سبحانه وتعالى، وأن يرفع درجة الإيمان في قلبه وحسن التوكل عليه، فكلما دعوت ربك حينئذ، وتضرعت إليه من سوء حالك وسوء مآلك، وما أنت عليه يوشك إن كان ذلك صادقا منك وإن كان بإخلاص تريد به وجه الله أن يقبل عليك، وأن يقويك وأن يمدك، يوشك أن يأخذك الله تعالى إليه ، إلى قوة الهمة وصدق العزيمة فإن كان الله تعالى معك فمن يكون عليك.

**فإن تقويت به سبحانه وتعالى كانت القوة التي لا تقهر وكانت العزيمة التي لا تنفصم، وكانت الهمة التي لا يعلوها همة وذلك الأمر مطلوب منك في هذه الأيام ..**

أن تجاهد نفسك كيف تتململ وتضرع إلى الله تعالى أن يقويك وأن يقوي همتك، وأن يعلي عزيمتك وأن يأخذ بيدك فكلما حدث شيء من ذلك واطلع ربك سبحانه

وتعالى ورأى منك أنك صادق وأنك مخلص له فيها وأنك حزين تود أن تبذل مهما كان البذل حتى يعطيك سبحانه وتعالى وأن يهبك إياه وأن يساعدك فيه، وأن يقويك به فإن الله تعالى حينئذ لا يبخل على المرء المقبل عليه.

**بل إذا أقبلت عليه أقبل عليك أكثر من إقبالك، وإذا سرت إليه سار إليك أكثر من سيرك**، وعاهدنا الله تعالى مرة أخرى أن نقوم بها وألا ينتهي اليوم على المرء حتى يستشعر هذه الأحوال، وأن يدعو الله تعالى أن يوفقه لها مهما كان بذله من وقت وجهد ؛ فإنه لا يوازي أن يفتح الله تعالى عليه بشيء منها.

**لذلك فإن حال المؤمنين اليوم تستدعي أن يعاودوا رمضان مرة أخرى قبل أن ينفرط عقدهم**، وقبل أن يعودوا إلى الغفلة عودًا سريعًا، وقبل أن ينشغلوا بالدنيا الانشغال الذي يضعف القلب عن الرجوع إلى الله تعالى وليكن ذلك بدءًا جديدًا مرة أخرى، ألا ييأس من أن الله تعالى الذي يمكن أن يفتح عليه مرة أخرى، وأن يقبل عليه جل وعلا، وأن يمده مرة أخرى بمدده، وأن ينعشه برحمته، وأن يقويه على استمرار السير إلى الله تعالى، وأن يضعف شيطانه وهواه ونفسه عن مقاومة أعمال الطاعة ومقاومة السير إلى الله تعالى .

فإذا سأل السائل: ما الطريق إلى أن يرجع رمضان مرة أخرى ؟ نقول له: عد إلى الله تعالى ليلة أو ليلتين أو ثلاث من هذه الليالي التي كُنت تصلِّيها، فقُم فيها لله تعالى، عاود قرآنك فاختم في ثلاثة أيام، أو عاود ذكرك وأورادك فاختر وردًا طويلاً من الاستغفار ومن التسبيح والصلاة على النبي ﷺ يومًا أو يومين أو ثلاثة تجدد حياة قلبك، وتجدد نشاط روحك، وتقبل به على الله تعالى مرة أخرى، أن توصد على نفسك اليوم أي أن توصد على نفسك وقلبك بابك من اليوم من هذه اللحظة حتى تستطيع أن تعود إلى

الله، قم ثلاث ليال متوالية لله تعالى، واعلم أن ذلك سيزيد في نشاطك وقوتك، وسيعود بالمدد عليك من الله تعالى، **سيأتيك الشيطان يقول : أنت متعب أنت وراءك عمل أنت وراءك أشغال أنت وراءك كذا وكذا، قل كل ذلك يرفعه الله تعالى عنك،**

**إذا أقبلت على الله تعالى خفف عليك كل ذلك،**

**إذا أقبلت عليه أقبل عليك، أمدك بمدده، وأعانك بعونه سبحانه وتعالى وقواك بقوته،**

**ولا تخف شيئًا،** ولا تخف عاقبة شيء أقبل على الله تعالى هذه الأيام، تعاود نشاط الروح والقلب وتجدد حياة العبادة في قلبك، وتقوى بدنك ونفسك على الرجوع إلى الله تبارك وتعالى، بذلك يمكن أن تستقيم أحوالك على طريق الله تعالى.

# الفهرس


مقدمة الطبعة الثالثة ..... ـ ٣ ـ

مقدمة ..... ـ ٥ ـ

**الفصل الأول: علامات السائرين في طريق الله** ..... ـ ١١ ـ

أولا: محبة الله تعالى ..... ـ ١٤ ـ

ثانيا: ذكر الله تعالى ..... ـ ١٥ ـ

ثالثا: المواظبة على قيام الليل ..... ـ ١٧ ـ

رابعا: المسارعة إلى الخيرات ..... ـ ١٨ ـ

خامسا: الانشغال بأمر الدين والدعوة ..... ـ ٢٠ ـ

سادسا: الزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة ..... ـ ٢١ ـ

**الفصل الثاني: بداية عهد جديد مع الله تعالى** ..... ـ ٢٧ ـ

الطريق إلى الوفاء بالعهد مع الله ..... ـ ٣٠ ـ

أولا: عدم اتباع وصية الشيطان: ابدأ في رمضان القادم ..... ـ ٣١ ـ

ثانيا: الحذر من الغرور بعبادة رمضان ..... ـ ٣٣ ـ

ثالثا: استشعار الحنين إلى الطاعة ..... ـ ٣٤ ـ

رابعا: المسارعة في البدء من ليلة العيد ..... ـ ٣٧ ـ

الأول: معاودة قيام الليل من ليلة العيد ..... ـ ٣٨ ـ

الثاني: صيام ستة أيام متتابعة بعد يوم العيد مباشرة ..... ـ ٣٩ ـ

**الفصل الثالث: محبة الله تعالى** ..... ـ ٤٣ ـ

أولا: تقديم محبة الله تعالى ورسوله على كل محاب النفس ..... ـ ٤٥ ـ

ثانيا: كراهية ما يكره الله تعالى من المعاصي ..... ـ ٤٨ ـ

ثالثا: إدمان ذكر الله تعالى ..... ـ ٥٠ ـ

رابعا: الخلوة بالله لمناجاته ..... ـ ٥٣ ـ

# الفهرس


خامسا: الحزن على فوت حظك من الله ..... ـ ٥٩ ـ

سادسا: محبة المؤمنين والذلة لهم ..... ـ ٦٢ ـ

المحبة هي الغاية القصوى في العلاقة بين العبد وربه ..... ـ ٦٣ ـ

الخوف ..... ـ ٧٦ ـ

**الفصل الرابع: الاستقامة على طريق الله** ..... ـ ٨٣ ـ

أولا. معركة الشكر ..... ـ ٨٤ ـ

آثار الشكر: قيام الليل ..... ـ ٨٧ ـ

آثار الشكر: القرآن ..... ـ ٩٠ ـ

آثار الشكر: ذكر الله تعالى ..... ـ ٩٣ ـ

ثانيا. قصر الأمل في الدنيا والميل إلى الآخرة ..... ـ ٩٥ ـ

ثالثا: القصص القرآني المتعلق بحب الدنيا ..... ـ ١٠٢ ـ

رابعا: أحوال القلوب مع الدنيا ..... ـ ١٣٤ ـ

خامسا: المسارعة إلى العمل الصالح ..... ـ ١٣٨ ـ

سادسا: التعلق بالله والشوق إلى رؤية بيته ..... ـ ١٤١ ـ

**الفصل الخامس: الاستعانة بالله والتقوي به سبحانه** ..... ـ ١٤٧ ـ

بعد رمضان وقف أهل الإيمان في مفترق الطرق، إما أن يسيروا في طريق محبة الله وطلب الدار الآخرة، ويصبروا على شدة الطريق، وعلى زخارف الدنيا وبهجتها، ويستمسكوا بما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أو أن يرجعوا ويتقهقروا عن مواصلة السير في هذا الطريق .

ويأتي هذا الكتاب لنبين فيه علامات السائرين في هذا طريق،حتى تكون نبراسا للمؤمنين ليسيروا في هديها، ويستضيئوا بنورها؛ وكذلك عندما يرون ما أعد الله تعالى للمؤمنين المتقين الصابرين، وما أخذ به أصحاب الدنيا ودمرهم، وأزال أموالهم ومسخ سيرتهم، بسبب إنشغالهم بهذه الدنيا عن ربهم وغفلتهم عن أخرتهم.